تيريز
Looloo
www.dvd4arab.com
Thérèse Desqueyroux

تيريز

للكاتب الفرنسي الكبير

فرنسوا مورياك

عضو الأكاديمية الفرنسية

تعريب الأستاذ

محمود عبد المنعم

Looloo
www.dvd4arab.com

ربى ، أرحم المجانين والمجنونات ؛
ارحمهم يا خالق الكون ، هل يمكن
أن يوجد وحوش من بنى البشر فى
نظر الذى يعرف وحده لماذا وجدوا
وكيف سووا ، وكيف كان يمكن
خلقهم على غير ما هم عليه ؟

شارل بودلير

Looloo
www.dvd4arab.com

مقدمة

سوف يقول الكثيرون ، يا تيريز ، الا وجود لك . ولكنى اعرف انك حقيقة ماثلة ، انا الذى قضيت السنوات الطويلة اتبصص عليك ، وكثيرا ما استوقفتك فى الطريق ، وكثيرا ما تفحصت وجهك .

وكم اذكر ، عندما كنت مراهقا ، انى لمحت وجهك الابيض الصغير ، فى احدى القاعات الخانقة التى تعقد فيها جلسات الجنايات وانت مستسلمة الى المحامين الذين كانوا اشفق عليك من السيدات المتبهرجات .

بعد ذلك برزت لعينى فى احد منتديات الريف ، ولك ملامح امراة . . امراة شابة عابسة ضجرة بالرعاية التى تحيطك بها قريباتك العجائز ويبذلها لك زوجك الساذج ، وهم يتساءلون ، ولكن ما دهاها ؟ . السنا نحبوها بكل شىء ؟ .

من ذلك الحين كثيرا ما شاهدت يدك المفرطة فى الكبر نوعا ما وهى تمتد الى جبينك العريض الجميل . وكم من مرة رايتك من خلال الحواجز الحية التى تتكون منها اسرة من الاسر ، وانت تدورين وتلفين بخطوات كخطوات الذئبة وتسددين الى نظراتك المليئة بالحقد والحزن معا .

سوف يدهش الكثيرون لما اقدمت عليه من تصور هذه المخلوقة التى بزت جميع الآخرين قسوة وبشاعة . ولكن هل فى استطاعتى ان احكى شيئا عن الناس الذين تتفجر الفضيلة منهم والذين يحملون قلوبهم على ايديهم ؟ . ان الذين يحملون قلوبهم على ايديهم لا قصص لهم بينما انا عليم بقصص القلوب الدفينة التى تختلط بأجساد من الطين .

ـ كنت أود يا تيريز ، ان ينتهى بك الالم الى طريق الله . ولطالما

Looloo
www.dvd4arab.com

تمنيت ان تكونى جديرة باسم القديسة لوكوستا (١) ولكن لو حدث ذلك لثار الكثيرون محتجين على ما فى هذا التشبيه من اثم وامتهان لقدسية الاسماء ، على الرغم مما يسلمون به من ضعف نفوسنا المذبة التى يجوز لها ان تسقط مرة ثم تبرأ من سقطتها .

على انى اذ اتركك فى عرض هذا الطريق يساورنى الأمل فى انك لست الوحيدة فيه .

(١) رومانية اشتهرت بجرائم القتل بالسم استخدمتها اجريبينا لقتل كلوديوس كما استخدمها نيرون للقضاء على بريتانيكوس . حكم عليها بالاعدام فى سنة ٦٨ للميلاد (المترجم) .

فتح المحامى الباب . شعرت تيريز دى كويرو ، فى هذا الممر المنعزل من ممرات سراى العدل ، بالضباب يلفح وجهها فاستنشقته بعمق كبير . انها تخشى التباطؤ ولكنها تتردد فى الخروج . هناك رجل قد تدثر فى ثيابه حتى عنقه . انه يخطو بعيدا عن شجرة الساج التى التصق بجذعها . لقد عرفت فيه اباها . صاح المحامى قائلا :

— لا وجه لاقامة الدعوى ..

ثم التفت الى تيريز وقال :

— يمكنك الخروج . لا يوجد احد .

هبطت تيريز الدرجات المبتلة . حقا . يبدو الميدان الصغير مقفرا . لم يقبلها ابوها بل ولم يدر نحوها نظره ، وانما راح يوجه الاسئلة الى المحامى دورو الذى كان يبعث بردوده فى صوت لخفيض كان شخصا يسترق السمع الى حديثهما . وكانت كلمات الرجلين تصل الى اذنى تيريز مبهمة غامضة .

قال المحامى :

— سأتسلم غدا التبليغ الرسمى بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى .

فسأله الأب :

— ألم يعد هناك محل لاية مفاجأة اخرى ؟ .

ورد عليه المحامى

— كلا .. لقد طبخت الطبخة كما يقولون .

فقال الأب :

— بعد الشهادة التى ادلى بها زوج ابنتى ، أصبح الأمر منتهيا .

فرد عليه المحامى :

— منتهيا .. منتهيا .. من يدرى ! .

وقال الأب :

— ما دام هو نفسه باعترافه لم يكن يعد قطرات الدواء ابدا .

فاعترض المحامى قائلا :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ هل تعلم يا لاروك .. فى مثل هذه القضايا .. شهادة المجنى عليه ...

وهنا ارتفع صوت تيريز تقول :

ـ لم يكن هناك مجنى عليه ..

فبادرها المحامى قائلا :

ـ سيدتى .. لقد اردت أن اقول ان اهماله هو الذى جنى عليه .

فنظر الرجلان هنيهة الى المرأة الشابة وقد وقفت بلا حراك ملتفة فى معطفها وتأملا وجهها الشاحب وقد خلا من التعبير ..

سالت تيريز عن العربة التى كان ابوها قد استوقفها تنتظر لخارج المدينة لكيلا يثير وجودها انتباه أحد .

اخترق الجميع الميدان ، وقد التصقت بمقاعده التى بللها المطر اوراق الساج المتساقطة . كان النهار لحسن الحظ قد قصر كثيرا وللوصول الى طريق بودو يمكن سلوك اكثر الشوارع اقفارا فى البلدة . سارت تيريز بين الرجلين وقد ارتفعت هامتها فوق قامتهما بينما راحا مرة أخرى فى النقاش كان لا وجود لها معهما . ولم يكن يضايقهما الا الفاصل الذى يبعدهما عن بعضهما بوجود هذه المرأة بينهما فاخذ كل منهما يدفعها بكوعه . عندئذ تخلفت عنهما قليلا وخلعت قفازها لتلتقط شيئا من الطحلب العالق بالحائط الذى تسير الى جواره . ومن وقت لآخر يمرق بالقرب منها عامل ممتط دراجته او عربة صغيرة ، فكان الوحل المتطاير يلجئها الى الاحتماء بالجدار . ولكن عتمة المساء كانت تلتف بتيريز فتحجبها عن أعين المارة ولا يعرفها أحد . ولم تكن الروائح المنطلقة من الأفران والمنبعثة من الضباب المنتشر هى مجرد عبيق المساء فى بلدة صغيرة وانما كانت تيريز تجد فيها عبير الحياة وقد ردت اليها بعد لأى .. فكانت تغلق عينيها على انفاس تلك الارض الغائمة المعشوشبة المبتلة . وكانت تجاهد فى الا تصغى الى حديث ذلك الرجل القصير ذى الساقين الضئيلتين المقوستين الذى لم يلتفت مرة واحدة نحو ابنته . انها لو سقطت مغشيا

عليها على حافة هذا الطريق لما شعر بها ابوها ولما أحس بها دورو بعد ان زالت عنهما الرهبة فرفعا عقيرتهما بالحديث ..

قال احدهما :

ـ لقد كانت شهادة مسيودى كويرو جيدة .. نعم .. ولكن تلك التذكرة الطبية .. انها فى الواقع مزورة .. وكان الدكتور بيدامى هو الذى تقدم بالشكوى ..

أجابه الآخر :

ـ لقد سحب هذا الطبيب شكواه ..

ـ على كل حال ، الحجة التى قدمتها .. وهذا الشخص المجهول الذى اعطاها التذكرة الطبية ! .

حاولت تيريز عبثا أن تخفف من خطاها ليس لان السير اتعبها ، ولكن لتتحاشى سماع تلك الكلمات التى صدموا بها رأسها طوال الاسابيع الماضية . ولكن استحال عليها عدم سماع صوت ابيها الذى كان يصرخ قائلا :

ـ لطالما قلت لها : أيتها البائسة ، ابحثى لك عن شىء آخر .. ابحثى لك عن شىء آخر ..

* * *

لقد قال لها ذلك مرات عديدة وكان من حقه أن يطمئن الى سلامة موقفه . فما الذى يقلقه بعد ذلك ؟ ان ما يسميه الشرف والاسم قد خرجا سليمين من المأساة . والى ان يحين موعد الانتخابات لمجلس الشيوخ لن يذكر احد تلك القصة بأثرها . هذا ما كانت تفكر فيه تيريز وهى تود لو لم تلحق قط بالرجلين . ولكن الرجلين ، وقد أخذتهما حدة المناقشة ، توقفا فى وسط الطريق واندفعا يشوحان بأيديهما .. قال المحامى :

ـ صدقنى يا لاروك ، واجه الامر بجراة ، بادر الى الهجوم فى عدد الاحد القادم من جريدة « الزارع » هل تفضل أن اتولى انا هذه المهمة ؟ يلزمنا عنوان مثل « الاشاعة الخبيثة » ..

رد عليه زميله قائلا :

ـ لا يا صديقى .. لا .. لا .. كيف يكون [illegible]

www.dvd4arab.com

ان التحقيق قد داخلته (الكلفتة) حتى انهم لم يستشيروا فيه واحدا من خبراء الخطوط ، ليس أمامنا غير الصمت والكتمان .. هذا كل ما اعرفه . سوف اناجز وسوف ابذل من مالي .. ولكن من اجل سمعة الاسرة يجب اخفاء ذلك كله .. يجب اخفاؤه ..

لم تسمع تيريز ماذا كان رد دورو على هذا الكلام لان المحامي كان قد اسرع الخطو . فعادت تستنشق الليل المطير مرة اخرى كما لو كانت انسانا يعاني الاختناق . وفجاة حضر الى ذهنها وجه مجهول هو وجه رجل بيلاد .. جدتها لامها .. انه وجه مجهول .. انك لتبحث عبثا لدى افراد عائلة لاروك او لدى افراد عائلة دي كويرو عن رسم او صورة لهذه المرأة التي لا يعرف عنها اي انسان شيئا الا انها قد ذهبت في يوم من الايام . تخيلت تيريز انها وربما كانت ستمحي هي الاخرى كما محيت جدتها وتتلاشى حتى يتعذر فيما بعد على ابنتها مارى الصغيرة ان تعثر في احدى المجموعات على صورة المرأة التي جاءت بها الى هذه الدنيا .. ان مارى ، في هذه اللحظة ، تنام في احدى حجرات ارجلوز حيث تعمل تيريز في تلك الليلة متاخرة . وسوف تصفى هذه المرأة الشابة في الظلام الى الطفلة في رقادها وسوف تنحني عليها وتلثم بشفتيها كالماء تلك الحياة النائمة .

على حافة الطريق كانت تسير عربة موخاة الستر بينما تنعكس اضواء مصابيحها على أرداف الجوادين النحيلين الملقين بها .. والى الامام على جانبي الطريق كانت ترتفع حوائط سوداء من اشجار الغابة تنتشر على اليمين وعلى اليسار متعانقة القمم وتحت هذا القوس المعقود كان الطريق الخفي ينحدر منسدسا . وكانت السماء فوق الرءوس لابسة برداء من فروع الشجر .

أخذ الحوذي يسدد نظراته الى تيريز في اهتمام نهم . وحينما سالته هل سيصل بهم في الموعد المناسب لركوب القطار الاخير من محطة نيزان طمأنها واضاف انه على كل حال يحسن الاسراع وعدم اضاعة الوقت .

قالت تيريز :

ـ هذه هي المرة الاخيرة التي اكلفك فيها هذه المشقة ياجاردين فاجابها الحوذي :

ـ الم يعد لك يا سيدتي ما تفعلينه هنا ؟

هوت راسها بينما ظل الرجل يلتهمها بنظراته . هل قدر لها ان تظل طوال حياتها هكذا نهبا للانظار ؟

ـ اذن انت مسرورة !

ووجه اليها ابوها هذا السؤال وقد بدا انه تنبه في نهاية الامر الى وجودها بجواره . فاسرعت تيريز تلقي نظرة فاحصة خاطفة على هذا الوجه الذي شوهته المرارة وقد تناثرت على اديمه شعيرات جافة بيضاء اللون في اصفرار وجلت قسماته اضواء مصابيح العربة . ثم قالت في صوت خافت « لقد تعذبت كثيرا .. اني متعبة ... » . ثم كفت عن الكلام . فما جدوى كلماتها ؟ انه لا يصغي اليها ولا يراها . وما شانه بما تحس به تيريز ؟ ان كل الذي يهمه هو الوصول الى احد مقاعد مجلس الشيوخ وقد قامت العراقيل في سبيله بسبب هذه الابنة .

ـ انهن كلهن هكذا .. اما مجنونات او معتوهات . انها لم تعد تحسن الحظ تحمل اسم لاروك . ان اسمها الآن دي كويرو . لقد امكن تحاشي محكمة الجنايات ، ولذلك فهو يتنفس الصعداء كيف السبيل الى منع الخصوم من فتح هذا الجرح ؟ من الغد سوف نذهب الى مقابلة عمدة البلدة . حمدا لله فما زال مدير صحيفة « اللائذ المحافظة » في صفنا . اف لهذه القصص التي تثيرها الغيبات الاغران ! ... قبض الاب على ذراع تيريز وقال :

ـ هيا اصعدي سريعا . لقد حان الوقت ... !

هنا تكلم المحامي ، وربما بدافع الخبث ، وربما بدافع الرغبة في الا يترك تيريز تنصرف من غير ان يوجه اليها كلمة منه . فسالها عما اذا كانت ستذهب منذ تلك الليلة الى لقاء مسيو برناردي كويرو فاجابت :

ـ ان هذا امر مؤكد . طبعا . ان زوجي ينتظرني .

قفز الى ذهن تيريز وهي تلقي بهذه الكلمات خاطر يقول :

Looloo
www.dvd4arab.com

ان تلك هى المرة الأولى حقا ، منذ أن غادرت مكتب قاضى التحقيق ، التى تتذكر فيها انها بعد بضع ساعات سوف تجتاز عتبة الحجرة حيث يرقد زوجها ومازال يعانى المرض ، وان سلسلة لا نهاية لها من الايام والليالى سوف تمتد أمامها ويكون عليها خلالها أن تعيش ملتصقة بهذا الرجل .

حقا ، ان تيريز قد قطعت من قبل مرات عديدة هذه الرحلة نفسها التى تقوم بها فى تلك الليلة . لقد كان ذلك اثناء المدة التى قضتها فى منزل أبيها ، الواقع بالقرب من منافذ البلدة الصغيرة منذ بدء التحقيق معها . ولكن رحلاتها السابقة كانت لغرض آخر ، هو ابلاغ زوجها تطورات التحقيق . ولطالما اصفت قبل ان تركب العربة الى توجيهات دورو ونصائحه بشأن الاجابات التى يلتزم بها مسيو دى كويرو عندما يعيد المحقق سؤاله . ولم يكن يخالج تيريز فى ذلك الوقت اى قلق او ضيق فى مواجهتها لهذا الرجل المريض . وكان اهتمامها وقتئذ منصرفا كله ، لا الى ماحدث فعلا ، ولكن الى ما يجب ان يقال وما لا يجب أن يذكر فى التحقيق . لم يحدث قط ان كان الزوجان فى حياتهما الزوجية على مثل هذا التقارب الذى ساد بينهما بسبب هذا الدفاع .. ان جسدا واحدا كان يشدهما الى بعضهما ، هو جسد ابنتهما الصغيرة مارى .. كان جل همهما منصرفا الى تأليف القصة البسيطة المتماسكة التى تروى للقاضى وتكفى لاقناع نزعته القانونية . كانت تيريز فى تلك الفترة تركب تلك العربة نفسها التى تركبها فى تلك الليلة وتتحرق رغبة فى الوصول الى نهاية تلك الرحلة الليلية التى تتمنى الآن الا ترى لها نهاية . كم كانت تتشوق ، فى ذلك الوقت ، بمجرد صعودها الى العربة ، أن ترى نفسها بين جدران تلك الغرفة فى ارجلوز . انها تستعيد فى ذهنها التوجيهات التى كان ينتظرها منها برنار دى كويرو .. كانت هذه التوجيهات تقول : عليه الا يخشى أن يؤكد فى التحقيق واقعة حديث زوجته له ، فى احدى الليالى ، عن تلك التذكرة الطبية التى صرفتها من الصيدلية ، بناء على رجاء رجل مجهول توسل اليها بحجة عدم استطاعته التوجه بنفسه الى الصيدلى الذى يطالبه

بديون سابقة لا يستطيع سدادها الآن .. وكان المحامى دورو يرى الا يتمدى برنار فى تلفيق هذا الدليل الى حد الزعم بانه عاب وقتئذ على زوجته اقدامها على ارتكاب مثل هذه الحماقة .

تساءلت تيريز بعد ان تبدد عنها هذا الكابوس ، عما سوف يتكلمان عنه هى وبرنار ؟ تمثل فى ذهنها هذا البيت الضائع الذى ينتظرها فيه زوجها . فرات فى خيالها السرير القابع فى وسط الغرفة ذات البلاط المربع ، والمصباح الخفيت على المنضدة وسط أكوام الجرائد وزجاجات الدواء .. وتخيلت كلاب الحراسة وقد نبهها صوت العربة فأخذت تنبح ثم عادت الى الهدوء ، وبعد ذلك الصمت الرهيب كتلك الليالى الطويلة التى طالما تطلعت اثناءها الى برنار وهو يعانى نوبات القىء الشديد ، حاولت تيريز ان تتخيل النظرة الاولى التى سوف تتبادلها معه بعد لحظة ، ثم فى تلك الليلة ثم فى اليوم التالى ثم فى الايام المقبلة والاسابيع القادمة ، وهما معا فى ذلك البيت فى ارجلوز ، حيث ان تكون بهما حاجة الى تلفيق الرواية الزائفة للمأساة التى عاشاها معا .. لن يكون بينهما بعد الآن الا ما حدث حقيقة .. ما حدث حقيقة .. عند هذا الخاطر ارتعدت تيريز رعبا وقالت متلعثمة وهى توجه كلامها الى الآب العجوز وتدير وجهها ناحية المحامى :

— انى انوى البقاء بضعة أيام عند مسيو دى كويرو وبعد ذلك اذا استمر التحسن فى صحته ، سوف أعود عند أبى ..

— اما هذا فلا ، لا ، لا ، يا صغيرتى .

واذ اخذ الحوذى جاردير يتحرك فوق مقعده قال مسيو لاروك فى صوت أقل حدة :

— هل جننت تماما ؟ كيف تتركين زوجك فى هذا الوقت ؟ يجب ان تكونا كأصبعى اليد الواحدة . هل تسمعين ؟ حتى الموت .

— انت على حق يا ابى .. اين كان عقلى ؟.. اذن انت الذى سوف تجىء الى ارجلوز ؟..

— بلا بل سوف انتظركما يا تيريز فى منزلى أيام الخميس حيث يعقد السوق .. ستجيئان كما كنتما تفعلان دائما من قبل .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم تساءل الاب كيف تاه عن فهمها ان اقل خروج على العادات المرعية معناه الموت لهما جميعا . وقال مؤكدا :

ـ اتفقنا على ذلك اذن ؟ واستطيع الاعتماد عليك فيه ياتيريز؟ يكفي ما سببته للعائلة من آلام ..!

ـ ستفعلين كل ما يطلب منك زوجك عمله ، وليس لدى ما اقوله اكثر من ذلك ..

بعد هذه الكلمات اندس الاب داخل العربة ..

وراح تيريز يد المحامي تمتد نحوها باظافرها الجافة السوداء وسمعته يقول :

ـ كل ما كانت خاتمته خيرا فهو خير ..

وكان حقا يعني ما يقول اذ لو ان القضية سارت سيرها العادي لما عادت عليه منها اية فائدة بل للجات العائلة الى الاستعانة بالاستاذ بيركاف من محامي بوردو .. حقا ان كل شيء انتهى على ما يرام ..

ـ ٢ ـ

ما اكثر ما كانت تيريز تحب هذه الرائحة العطنة المنبعثة من الجلد المكسوة به مقاعد العربات العتيقة . لم تحزن كثيرا لنسيانها سجائرها فهي تكره التدخين في الظلام . مصابيح العربة تلقي اضواءها على المنحدرات المتتابعة وعلى عناقيد السرخس المتدلية وعلى اقدام اشجار الصنوبر الشامخة .. اكوام الحصى المتناثرة تمزق الظلال المسايرة للركب .. ومن وقت لآخر تمر عربة ريفية فتتجه بغالها تلقائيا ناحية اليمين من غير أن يتحرك سائقها النائم بداخلها . خيل لتيريز انها لن تصل ابدا الى ارجلوز وتمنت لو لم تصل اليها قط .. سارت العربة ساعة او اكثر من ساعة قبل ان تصل الى محطة نيزان ، ثم باتى بعد ذلك هذا القطار الضئيل الذي يتوقف طويلا عند كل محطة .. من بلدة سانت كلير حيث يكون نزولها ، سوف يبقى امامها عشرة كيلو مترات اخرى حتى تصل الى ارجلوز .. هذه الكيلومترات ستقطعها تيريز بالعربة مرة اخرى لان الطريق لا يسمح بمرور السيارة فيه ليلا .. قد

يقفز القدر في اية مرحلة من هذه المراحل وينقذها . استسلمت تيريز الى تخيلاتها التي كانت تغشاها في الليلة السابقة على الحكم لو أن الاتهام ظل قائما ضدها .. انه الشعور بتوقع حدوث زلزال ارضي عنيف .. خلعت قبعتها واسندت الى الجلد الذي تفوح منه الرائحة راسها الصغير المتمايل واسلمت جسمها لهزات الطريق الوعر .. لقد عاشت حتى ذلك المساء نهبا للهجمات .. وها هي الآن بريئة فاخذت تقيس ما حل بها من انهاك .. خدود كالحفرات ، وجنات وشفاه غائرة ، ثم تلك الجبهة الرائعة . كل ذلك ينم عن وجه امراة محكوم عليها .. نعم .. محكوم عليها بالرغم من ان الناس قد اسقطوا عنها التهمة ، محكوم عليها بالوحدة الابدية .. جمالها ، وقد اعترف الجميع من قبل بسحره الذي لا يقاوم ، هذا الجمال متوفر لنساء اخريات لها وجوه تكشف عن الالم الدفين وعن انبعاثات الجرح العميق ، ولكنهن يدين في الخداع سترا لما خفي واظهارا لغير ما بطن .. في تلك العربة المتمايلة فوق هذا الطريق الوعر الممتد وسط اشجار الصنوبر الكثيفة تضطرب امراة عارية الوجه وهي تمسح في بطء بيدها اليمنى جبهتها المضطربة .. ما هي الكلمات التي سوف يبتدرها بها برنار وقد كانت شهادته الكاذبة هي سبب نجاتها ؟ لاشك انه لن يوجه اليها سؤالا ما في هذه الليلة .. ولكن ماذا عن الغد ؟ اغلقت تيريز عينيها ثم عادت ففتحتها ، واخذت تتعرف على هذه المرحلة الصاعدة من الطريق ، بينما سار الجوادان الهوينا .. لعل من الخير لها الا تفكر فيما سيكون ، فربما كان الامر ابسط كثيرا مما يدور بخلدها .. لا تفكر فيما سيكون .. ولتستسلم الى النوم .. لتغب عن الوعي وعن العربة معا .. ما هذا الرجل الجالس خلف المنضدة الخضراء ؟ .. قاضي التحقيق ... ؟ هو ايضا .. ؟ اليس يعلم ان الدعوى قد سويت؟ كلا . انه يهز راسه من اليسار الى اليمين . لا . لا يمكن اصدار القرار بعدم وجود وجه لاقامة الدعوى . هناك وقائع جديدة قد ظهرت .. وقائع جديدة ؟..

ادارت تيريز راسها لكي لا ترى هذا الخصم العنيد الاضطرابي المرتسم على وجهها .. ها هو يسالها :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ عودى الى ذكرياتك ، يا سيدتى ، الم تنس شيئا فى الجيب الداخلى لتلك السترة القديمة ، السترة التى لا ترتدينها الا فى اكتوبر عندما تذهبين لصيد الحمام البرى ؟ الم تنسى فيها شيئا ؟ الم تخفى فيها شيئا ؟ ..

لا وسيلة للاحتجاج .. انها تختنق .. لم يحول القاضى نظره عن الفريسة ، وفى صمت رهيب وضع على المنضدة امامه علبة صغيرة مختوما عليها بالشمع الاحمر .. تستطيع تيريز أن تعيد الكلمات المكتوبة على غلاف العلبة .. تلك الكلمات التى اندفع القاضى يرددها فى صوت حاد كئيب : كلوروفورم ٣٠ جرام ، اكونيتين ٢٠ حبة ، ديجيتالين محلول ٢٠ جرام ..

انفجر القاضى ضاحكا .. بينما صرخت فرامل العربة وهى تحتك بالعجلات .. استيقظت تيريز من غفوتها .. امتلأ صدرها المتمدد بالضباب .. انه بلا شك سيل الضباب الأبيض المتساقط .. لطالما حلمت .. وهى طفلة مراهقة .. احلاما مزعجة كهذه عند ما كان يؤرقها الخوف من الغلطات التى قد تضطرها الى اعادة امتحان الشهادة الابتدائية .. انها فى تلك الليلة تتذوق نفس الراحة التى كانت تشعر بها عند افاقتها من كوابيسها فى تلك الايام البعيدة .. لم يكن يفسد هذا الاحساس اللذيذ الا بقية من قلق بسبب عدم صدور قرار حفظ الدعوى بصورة رسمية .. ولكنها تذكرت ما قيل لها : « تعلمين طبعا ان القرار يجب ان يبلغ الى المحامى أولا » ..

فعاد اليها شىء من الاطمئنان ..

***

ها هى الآن حرة طليقة .. ما الذى تتمناه اكثر من ذلك ؟ .. سيكون من هينات الأمور أن تجعل حياتها مستطاعة مع برنار .. فما عليها الا أن تكشف له عن قرارة نفسها والا تترك شيئا فى الخفاء .. هذا هو الطريق السليم . ليبرز الى وضح النهار كل ما كان مستورا .. وليكن ذلك منذ الليلة فورا .. صممت تيريز على ذلك وغمرها التصميم بالسرور .. قبل وصولها الى ارجلوز سوف تجد من الوقت متسعا لاعداد اعترافها . كلمة «الاعتراف» هذه هى التى كانت ترددها صديقتها التقية المتدينة .. آن دى

لاترانف فى ايام السبت التى تخللت اجازتهما السعيدة .. يا اختى آن ، أيتها البريئة العزيزة ، اى وضع هو وضعك انت فى هذه القصة كلها ..! ما اكثر ما يجهل الناس الاطهان ما يحيط بهم وما يخالطون فيه كل يوم وكل ليلة ! ما اكثر ما يغفلون عن الاعشاب السامة التى تنبت تحت اقدامهم البريئة !

لقد كانت على حق ، بلا شك ، تلك الفتاة الصغيرة ، عندما كانت تكرر القول لتيريز ـ الطالبة الثانوية ذات التفكير العقلى والمزاج الساخر :

ـ ليس فى استطاعتك ان تتصورى هذا الاحساس بالخلاص الذى يتبع الاعتراف والغفران ، عندما يصبح الضمير صافيا رجوع المرء منا الى مزاولة حياته فى صفحة جديدة ..

حقا ، لقد غمر شعور بالانفراج اللذيذ بمجرد أن صممت فى قرارة نفسها على الاعتراف لزوجها بكل شىء ..

ـ سيعرف برنار كل شىء .. ساقص عليه كل شىء ..

ما الذى سوف تقوله له ؟ باى الاعترافات تبدأ ؟ هل تكفى الكلمات لتهدئة ذلك التسلسل المبهم من الشهوات الجامحة والرغبات المصرة والاندفاعات التى لا يمكن توقعها ؟ كيف يتصرف اولئك الذين يعترفون بجرائمهم ؟ ..

ـ اما انا ، فلست اعرف لى جرائم ، اننى لم ارد تلك الجريمة التى اتهمونى بها .. لا اعرف ما الذى كنت اريده .. لم اعرفه قط الى اين تتجه تلك القوة المجنونة الهائجة التى بداخلى والتى من حولى .. لم اعرف ما الذى كانت تهدمه هذه القوة فى طريقها لقد كنت انا نفسى فى رعب منها ..

المصباح البترولى المعروف يلقى ضوءه على حائط محطة الميزان المطلى بالجير وقد استقرت الى جواره عربة صغيرة .. ما اسرع ما تلف الظلمة كل شىء على بعد خطوات حول المحطة من القطار الواقف هناك على الخط الفرعى ينبعث فحيح كانه نشيج مكتوم حزين .. اخذ جاردير حقيبة تيريز وعاد يحملق فى وجهها مرة أخرى كمن يحاول افتراسها بعينيه .. لعل زوجته اقد اوصته !

ـ انظر اليها جيدا لترى كيف هى وكيف تبدو ..

Looloo
www.dvd4arab.com

واجهت تيريز حوذى ابيها بتلك الابتسامة الحلوة التى طالما قال الناس عنها

ـ ان المرء لايتساءل عما اذا كانت جميلة او دميمه ولكنه يخضع لسحرها ...

ـ طلبت من الحوذى ان يذهب ليحجز لها مكانا فى القطار ، انها تخشى اختراق قاعة الانتظار حيث جلست فلاحتسان وعلى وكيتى كل منهما سلال وقداخذتا تحركان رأسيهما وهما منهمكتان فى اشغال الابرة .

عندما عاد الحوذى بالتذكرة قالت له ان يحتفظ لنفسه بباقى النقود . فلمس بيده حافة قبعته وبعد ان جمع فى يده لجم الخيل التفت مرة اخيرة ليلقى نظرة على وجه ابنة سيده .

لم يكن القطار قد تجمع شمله بعد . كم من مرة ، فيما مضى ، كانت تيريز لاروك وآن دى لاتراف تسعدان لساعة الانتظار هذه ، فى محطة نيزان ، وهما راجعتان اليها فى فترة الاجازات او عند العودة الى المدرسة ـ كانت الصديقتان تأكلان فى حانة القرية البيض المقلى على شرائح من لحم الخنزير ثم تنطلقان ، وقد لفت كل منهماذراعها حول خصرزميلتها ، على هذا الطريق الذى تكسوه الليلة الظلمة السوداء والكآبة . لم يكن هذا الطريق ، فى تلك السنوات الخوالى ، الا اسطح البياض فى ضوء القمر. كانتا تفرقان فى الضحك لمنظر ظلالهما وقد استطالت واختلطت وتلاشت . كان حديثهما يدور بلا شك حول مدرساتهما وحول زميلاتهما فى الدراسة ـ كانت احداهما تدافع عن الدير الذى تتعلم فيه بينما تطرى الاخرى مزايا ومحاسن مدرستها الثانوية .

ـ آن ...

ـ لفظت تيريز هذا الاسم بصوت مرتفع فى الظلام . يجب ان تبدأ حديثها مع برنار عن آن . برنار .. ! ياله من رجل دقيق ... ! قادر على تمييز العواطف بعضها عن بعض وعلى وضع الواحدة منها بعيدة عن موضع الاخرى .. ! انه يجهل تلك السراديب الخفية التى تمزج ما بين المشاعر وتخلط الاحاسيس ببعضها البعض .

كيف السبيل الى ادخاله فى تلك المناطق المبهمة التى ظالما عاشت فيها تيريز وتجرعت فيها كؤوس العذاب ؟ ولكن هذا ما يجب الوصول اليه . لن يكلفها الامر ، بعد قليل عندما تدخل الى تلك الغرفة ، الا ان تجلس متهالكة على حافة السرير ثم تنطلق مستدرجة برنار من مرحلة الى مرحلة الى ان يوقفها هو عن الاسترسال فى الكلام ويقول :

ـ كفى ؟ انى فهمت كل شىء الآن . انهضى . لك الغفران .

اخترقت تيريز حديقة ناظر المحطة وهى تتحسس طريقها وشمت عبير زهور الكرنيرنيم من غير ان تراها . عربة الدرجة الاولى خالية تماما . على ان النور المنبعث من مصباحها الضئيل ماكان يكفى لاضاءة وجهها . لم تستطع القراءة . واى القصص لم تكن فاترة الى جانب قصة حياتها الوهيبة ؟ انها ربما ماتت من العار او من القلق او من الندم او من الاعياء ، ولكنها قطعا ماكانت لتموت من الملل وحده .

استراحت فى جلستها فى ركن المقعد واغلقت عينيها ـ هل يمكن لامرأة لها كل هذا الذكاء وكل هذه الفطنة ان تعجز عن ان تجعل هذه المأساة شيئا مفهوما واضحا ؟ نعم ـ صياحذها برنار من يدها بعد انتهائها من الاعتراف ويوقفها قائلا :

ـ اذهبى يا تيريز فى سلام . لاتتركى القلق يتطرق الى بالك بعد اليوم . سنبقى معا فى هذا البيت ، فى ارجلوز ، تنتظر الموت من غير ان نفرق بين الاوضاع التى استقرت وقضى فيها الامر . انى ظمآن .. اهبطى انت الى المطبخ واعدى لى كوبا من عصير البرتقال .

ساكرعها حتى ثمالتها ولو بدت لى عكرة . ليس يهمنى ان يذكرنى مذاقها بتلك الكوب من الشيكولاته التى شربتها فيما مضى ذات يوم فى الصباح . هل تذكرين ياعزيزتى نوبات القىء التى انتابتنى ؟ كانت يدك الحبيبة تسند رأسى وما كنت لتحيلى عينيك عن ذلك السائل الاخضر الكريه ، لم تكن نوبات الاغماء التى تصيبنى تخيفك ، ومع ذلك شحب لونك فى تلك الليلة التى اكتشفت فيها ان ساقى قد انعدمت فيهما الحركة وزال عنهما

Looloo
www.dvd4arab.com

الاحساس . كنت ارتجف . هل تذكرين ؟ وهذا الطبيب القبى الدكتور بيدامى الذى كان يدهشه ان تنخفض درجة حرارتى وان يضطرب نبضى الى ذلك الحد ...!

قالت تيريز تخاطب نفسها :

ـ يا الهى . انه لم يفهم كلامى . يجب ان اعيد كل ما قلته... منذ البداية ...

اين تبدأ اعمالنا ؟ ان نصيبنا من القدر ، اذا ما اردنا ان نعزله عن غيره وننظر اليه منفردا ، ليتمثل فى ذلك النبت الذى يستحيل اقتلاعه بجذوره كلها ـ هل ستضطر تيريز فى رواية اعترافاتها الى الرجوع لطفولتها الاولى ؟ ولكن اليست الطفولة نفسها هى نهاية ووصول لما هو قبلها ؟

طفولة تيريز . لقد كانت ثلوجا تغطى صفحة المنبع الذى انبثق منه اكثر الانهار كدرا ـ فى المدرسة الثانوية بدت وكانها تعيش لاهية غائبة عن الماسى التافهة التى كانت تمزق زميلاتها . ولطالما عاقت المدرسات الى هؤلاء الزميلات مثلا يحتذى هو تيريز لاذوك . كن يقلن فى اعجاب

ـ تيريز لاتطمع فى اية مكافاة اكثر من السعادة التى تغشاها عندما تحقق فى ذاتها الطراز السامى للانسانية . ان ضميرها هو الضوء الوحيد الذى تستضىء به . وهو يكفيها . انها تجد فيما تشعر به من كبرياء لانتسابها الى خلاصة الجنس البشرى عونا تستند اليه خيرا مما يفعله الخوف من العقاب .

ـ هذا ماكانت ترده احدى مدرساتها دائما . ولقد اخذت تيريز تسائل نفسها :

ـ هل كنت سعيدة الى هذا الحد فعلا ؟ ... ام هل كنت نموذجا ساذجة ؟ .. ان كل ما سبق زواجى يكتسى فى مخيلتى هذا المظهر الطاهر النقى . وهو بلا شك نقيض ذلك التلوث الذى لابمحى ابدا ، التلوث المصاحب لليلة العرس . ان المدرسة الثانوية التى عشت فيها قبل ان اصبح زوجة وأما تبدو فى ناظرى الآن فردوسا ـ ولم اكن ادرك هذا فى ذلك الوقت . كيف كنت استطيع ان ادرك

ان تلك السنوات السابقة على حياتى كانت هى حياتى الحقيقية ! الظهر ! .. لقد كنت طاهرة ! .. ملاكا ! .. لقد كنت ملاكا نعم ! ... ولكنى كنت ملاكا مشحونا بالشهوات . لقد تعذبت على الرغم مما كانت تزعمه مدرساتى ، وعذبت غيرى ايضا . كنت التلذذ بالالم الذى احدثه للآخرين واسعد بالالم الذى تحدثه لى صديقاتى . يا له من عذاب طاهر لم يخالطه ندم ! . ان اسباب سرورى البرىء كانت كلها وليدة هذه الآلام وهذه الافراح .

ان اعز ما كانت تفرح له تيريز كان عند حلول فصول الصيف تذهب لمصاحبتها تحت اشجار البلوط فى ارجلوز . كانت بها حاجة لان تقول لتلك الطفلة التى تتلقى تربيتها عند راهبات الساكر كير : « لكى اكون فى مثل طهرك هذا لا حاجة بى لارتداء اكل هذه الشرائط ولا لتكرار كل هذه الصلوات .. » ان ما يحيط آن دى لاتراف من براءة وطهر ليس فى جوهرة الا جهلا . ان راهبات الساكر كير يقمن آلاف الحواجز بين الحقيقة والفتيات الصغيرات اللاتى ينشئنهن . ولكم كانت تيريز تحتقر هؤلاء الراهبات الخلطهن بين الفضيلة والجهل . لطالما عايرت آن فى تلك الايام الصيفية البعيدة فى ارجلوز .. :

ـ انت يا عزيزتى .. انت لا تعرفين الحياة ...

تلك الايام الصيفية الحلوة .. تذكرتها تيريز وهى فى ذلك القطار الصغير الذى بدأ اخيرا يتحرك بعد طول وقوف . اعترفت بينها وبين نفسها أن تلك الايام الخوالى هى التى يجب ان ترجع اليها اذا ما ارادت ان تجلو نظرتها للأمور . يا لها من حقيقة عجيبة كيف يذخر فجر حياتنا الطاهر بالاعاصير الجارفة التى تظل فيه معلقة لا تنقض ؟ وكيف يكون ذلك الصبح المشرق ذو الزرقة الزاهية اشارة نحس لفترة ما بعد الظهر والمساء ونذيرا لما سيحل فيها بالكون من كوارث : خضرة مدمرة واغصان مكسرة ووحل لا اول له ولا آخر ؟ .. لقد عاشت تيريز من قبل لا تشغل ذهنها بشىء . لم تحدث فى اية لحظة من لحظات حياتها ان اهتمت بارهاصات الفكر والتدبر .. لقد خلت حياتها من المنحنيات المفاجئة وسارت فى طريق سهل المنحدر . لقد كان هبوطها فى هذا الطريق

Looloo
www.dvd4arab.com

لينا فى اول الامر ، ثم سريعا بعد ذلك . ان المرأة الضائعة فى هذا المساء هى نفسها المخلوقة المشرقة التى عاشت ايام الصيف البعيدة فى ارجلوز حيث تعود الليلة هاربة متخفية فى الظلام .

يالشدة ما بها من تعب واعياء ! ما جدوى البحث عن تلك الاسباب الخفية التى حركت ما كان كامنا فمن خلال زجاج النافذة لا ترى المرأة الشابة شيئا غير انعكاس صورة وجهها الشاحب . هبطت سرعة سير القطار الضئيل وانطلق من القاطرة صفير طويل انه يقترب فى حذر من احدى المحطات . مصباح يحركه ذراع انسان ، نداءات متبادلة بلهجة العامة ، صرخات حادة آتية من صفار الخنازير التى يفرغونها . هذه بلدة اوزيست . لم تبق غير محطة واحدة ثم يصل بعدها القطار الى بلدة سانت كلير . ومنها الى ارجلوز ستضطر تيريز الى ركوب عربة صغيرة تقطع بها هذا الجزء الاخير من الرحلة . ماأقصر مابقى لهامن وقت لاعداد دفاعها .

- ٣ -

ارجلوز .. انها حقا على حافة العالم القصوى . بقعة من تلك البقاع التى يتعذر السير الى ما وراءها . انهم يطلقون عليها هناك اسم « الربع » . بضعة منازل ريفية لا كنيسة لها ولا عمودية ولا جيانة . البيوت مبعثرة حول حقل من الشوفان على بعد عشرة كيلو مترات من سانت كلير . هذه المسيرة يقطعها العابر فى طريق وعر وحيد . طريق مليء بالحفر والشقوق . ومن الجانب الآخر لارجلوز لايوجد غير درب رملى تتوه رسومه طوال ثمانين كيلومترا حتى يصل الى شاطىء المحيط . اراض بور تكسوها البرك والمستنقعات وتتناثر فيها اشجار الصنوبر الهزيلة . انها منطقة اللاند التى تتلون فيها الاغنام فى نهاية فصل الشتاء بلون الرماد .. فى هذا الربع الخالى نشأت كبريات العائلات التى تقطن سانت كلير . ففى منتصف القرن الماضى شرع اجداد اولئك الذين يعمرون الآن تلك القرية فى استغلال عصارات الاشجار واخشابها لزيادة الموارد الضئيلة التى كانت تغلها لهم قطعان الاغنام ، فتحولت بيوتهم فى ارجلوز الى مساكن ودواوير للمزارعين .. ومازالت آثار النعمة

القابرة بادية الى اليوم ، ترى فى النقوش المحفورة على عتبات الابواب والنوافذ وعلى رخام المدافىء الباقية على الزمن ، دور عتيقة تتداعى عاما بعد عام حتى لتكاد اسطح بعضها من قرظ ما بها من جهد واعياء تلامس الأرض باجنحتها الكبرى .

لكن بيتين من تلك البيوت العتيقة بيتان ما زالا الى اليوم سكنا لاصحابهما : عائلتا لاروك ودى كويرو . لقد حرصت العائلتان على الاحتفاظ لداريهما فى ارجلوز بما كانتا عليه وقت انتقالهما اليهما عن الاجداد . جيروم لاروك ، عمدة بلدة ب . وعضو مجلسها البلدى كان يحتفظ بالقرب من ابواب البلدة بمقره الرئيسى ولكنه لم يشا ان يفير شيئا من معالم مزرعته فى ارجلوز . لقد ورث تلك المزرعة عن زوجته التى ماتت فى اثناء الوضع ، وكانت تيريز ما تزال فى المهد طفلة . لم يكن الاب يدهش اذن لما يراه من ميل ابنته ميلا شديدا الى قضاء اجازاتها فى تلك المزرعة . فما ان يحل شهر يوليو من كل عام حتى تهرع تيريز الى ارجلوز تعيش فيها فترة الصيف فى رعاية اخت كبرى لابيها تدعى العمة كلارا ، عجوز عانس صماء ، تعشق هى الاخرى هذه العزلة لانها — كما كانت تقول — لا ترى فيها شفاها تتحرك بالكلام ولا يسمع احد فيها غير صفير الرياح بين اشجار الصنوبر . على ان ما كان يستريح له مسيو لاروك من ذلك هو ان ارجلوز اذ تبعد عنه ابنته لفترة من الزمن كانت تقرب ما بين هذه الابنة وبين برنار دى كويرو الذى يتحتم عليها ان تتزوجه فى يوم من الأيام تنفيذا لرغبة العائلتين ، وان كان الاتفاق على ذلك لم يصبح رسميا بعد .

وبرناردى كويرو هذا ورث عن ابيه بيتا فى ارجلوز مجاورا لبيت عائلة لاروك . لم يكن احد يراه فى هذا البيت قبل افتتاح موسم الصيد ، ولم يكن يتخذ منه مبيتا له الا فى شهر اكتوبر حيث نصب بالقرب منه برجا لاقتناص الحمام البرى . اما فى الشتاء فكان هذا الشاب العاقل يتابع دراسة الحقوق فى باريس ، ولم يكن يقضى مع عائلته فى الصيف الا اياما قائل ، فقد كان يضيق ذرعا بفكتور دى لاتراف زوج امه الذى اقترنت به بعد ترملها من ابيه ، وهو رجل خالى الوفاض تتحدث بلدة سانت كلير

Looloo
www.dvd4arab.com

بأسرها عن اسرافه ونفقاته الباهظة . ان اخته لأمه – آن – مازالت فى نظره طفلة صغيرة لا تستحق منه اهتمام . هل كان حظ تيريز من اهتمامه كحظ آن ؟ ان الناس جميعهم يعتبرونهما منذ الآن زوجين . اليس يبدو ان ما يملكه احدهما انما خلق ليندمج فيما يملكه الآخر ..! وكان الشاب العاقل الرزين يتفق فى ذلك مع الناس جميعا وان لم يترك من الأمور شيئا للصدفة المجردة . انه يحرص مفاخرا على اتباع خير ما فى الحياة من نظام . ولطالما ردد هذا الشاب المائل الى السمنة :

– لن يصيب المرء الا اخطاؤه وما جنت يداه ...

ان وقته مقسم بالقسطاس بين العمل واللهو وان كان فى ذلك كله لاينكف عن طيب الطعام ولا عن جيد الشراب ولا عن لذة الصيد بوجه خاص . انه يعمل ، كما تقول امه ، « على طول الخط » لان الواجب يقضى بان يكون الزوج اكثر علما من زوجته . الم تشتهر تيريز فى كل مكان بالذكاء والفطنة ؟ ... ان لها لذهنا حادا ...! هذا لاشك فيه ...! ولكن برنار خبير بالأسباب التى تخضع لها المراة . ولطالما قالت له امه ان من الخير ان يمد قدميه فى كلا المسكرين فقد يستطيع حموه لأروك ان يساعده فى يوم من الأيام ... كان من المقدر ، عندما يبلغ سن السادسة والعشرين وبعد ان يقوم برحلات ، يعد لها العدة منذ الآن ، الى ايطاليا واسبانيا والبلاد الواطئة ، ان يتزوج من اغنى فتيات اللاند وارجحهن عقلا ، وربما لم تكن اكثرهن حسنا ولكن « المرء لا يتساءل عما اذا كانت جميلة ام دميمة ولكنه يخضع لسحرها »

ابتسمت تيريز للصورة الكاريكاتورية التى رسمتها فى مخيلتها لبرنار وقالت لنفسها :

– انه فى الواقع اظرف من كثيرين من الشبان كان يمكن ان تزوج بهم ..

– ان نساء اللاند فى الواقع يتفوقن كثيرا على رجالها الذين يعيشون فيما بينهم لا يختلطون بغيرهم . لقد استولت اللاند على افئدتهم وحينما ارتحلوا فهم يعيشون فيها بافكارهم . وليس من لهو يحلو لهم الا ماتجود به عليهم . انهم يعتبرون من الخيانة

لارضهم ومن الجحد لها أن يفقدوا الشيء بينهم وبين مزارعيهم وان يتكلموا بغير لهجتهم العامية وان يقلعوا عن سلوكهم الجاف واسلوبهم الوحشى فى الحياة الم يكن برنار يخفى تحت مظهره القاسى نوعا من طيبة القلب ولين العريكة ؟ لقد قال المزارعون عندما اشرف على الموت :

– لن يوجد من بعده سيد نبيل فى هذا البلد !

نعم . طيبة القلب مع قدر كبير من اعتدال الذهن وسلامة الطوية . انه لايتكلم قط عن شيء لا يعرفه فهو يعلم قدر نفسه وحدودها . لم يكن فى مراهقته دميما كل الدمامة هذا الفتى الحيى المنصرف الى مطاردة الارانب البرية فى الاحراش اكثر من انصرافه الى مطاردة الفتيات الحسان .

لم يكن هو الذى قفز الى مخيلة تيريز المسبلة العينين المستندة براسها الى زجاج نافذة القطار . لا . لم يكن هو ممتطيا دراجته فى الصباح الباكر على الطريق الموصل من سانت كلير الى ارجلوز فى حوالى الساعة التاسعة قبل ان يصل قيظ الصيف الى ذروته ... لم يكن الخطيب الموعود المنصرف عنها ، ولكن اخته الصغيرة آن وقد التهب وجهها نارا وانتشرت الخنافس تلمع بين اشجار الصنوبر وبدات جمرات اللاند تتقد تحت زرقة السماء بينما ارتفعت ملايين الذباب من الاغصان العالية – هاهى العمة كلارا تقول لآن :

– ضعى معطفك قبل الدخول الى الصالون .. انه فى برودة الثلاجة ... ولن تشربى قبل ان يجف عرقك ... ياصغيرتى ...

– آن تحاول عبثا ان تصرخ بعبارات التحية للمراة الصماء وتميز تقول لها :

– لاتبحى صوتك يا عزيزتى ، انها تفهم كل مايقال لها من الشفاه ...

ولكن آن تظل تحاول وهى تطبع على فمها الصغير كلماتها فى التواءات واشكال عجيبة . العمة كلارا ترسل الكلمات على عواهنها وتجيب بكل ما يتراءى لها الى ان ينتهى الامر بالصديقتين الى الفرار بعيدا لتضحكا ملء شدقيهما

Looloo
www.dvd4arab.com

اخذت تيريز تستعيد ، وهى على مقعدها فى هذا القطار المظلم ، تلك الايام الصافية من حياتها . انها ايام صافية حقا ولو لم يكن يتيرها غير شعاع ضئيل من السعادة المبهمة . لم تكن تدرى فى ذلك الوقت ان هذا الهناء المشوب بالكدر هو كل ماقدر لها أن تحصل عليه فى هذا العالم . لم يكن ينبهها شىء الى ان نصيبها من الدنيا انما هو هذا الصالون المعتم فى وسط الصيف القادح على هذا المقعد المكسو بالحرير الاحمر بالقرب من آن التى اخذت تقلب صفحات مجموعة من الصور فردتها فوق ركبتيها المضمومتين . من أين لها هذه السعادة ؟ هل تشترك آن مع تيريز فى ناحية واحدة من نواحى الذوق والمزاج ؟ ان آن تكره القراءة ولا تميل الا الى اشغال الحياكة والثرثرة الجوفاء والضحك . لم يكن لها رأى تبديه فى اى شىء ، بينما كانت تيريز تلتهم فى نهم روايات بول دى كوك وكتب « احاديث يوم الاثنين » و « تاريخ الحكم القنصلى » وكل ماكانت تعثر عليه راكدا فى جوف خزانات هذا البيت الريفى العتيق . لا لم يكن بينهما من مزاج مشترك الا الرغبة فى البقاء معا طوال تلك الامسيات التى تحاصر فيها نيران السماء الرجال المتحصنين داخل عتمة البيوت . كم من مرة قامت آن الى النافذة تفتحها لترى هبطت حرارة الجو ولكن سرعان ماكان الضوء وهو فى قسوة المعدن المنصهر ، يفمر الحجرة فجاة فيبدو وكأنه فيه لهب يشوى كل شىء فتعود مسرعة الى غلق النافذة والانزواء فى وكر الفرفة .

حتى عند الاصيل فى الوقت الذى تكتفى فيه الشمس بصبغ ما تحت اشجار الصنوبر باللون الاحمر والذى تظهر فيه آخر خفقاء جادة ساعية على مقربة من اديم الارض ، كانت حرارة الجو مازال متراكمة راكدة أسفل اشجار البلوط . فى تلك اللحظات كان يحلو للصديقتين ان تتمددا على حافة الحقل كما لو كانتا على شاطىء البحيرة بينما السحب المحملة بالعاصفة تعرض امام ناظريهما صورا متغيرة سابحة فى الفضاء . فما تكاد آن تشير لصديقتها الى تلك المراة المجنحة التى يرسمها السحاب فى الجو حتى تراها تيريز وقد تحولت الى حيوان عجيب متمدد .

كانتا تستطيعان فى شهر سبتمبر ان تخرجا بعد الغداء وان تنفذا الى داخل بلاد الظما ، فقد خلت منطقة ارجلوز من كل اثر لجداول الماء ، وعلى المرء ان يسعى طويلا بين الرمال قبل ان يصل الى المنابع التى تغذى المجرى الفحل المعروف باسم لاهور . انها تنتشر عديدة تلك المنابع ، وسط مساحات صغيرة من العشيب عند جذور اشجار الكستناء . ان أرجل الفتاتين العارية كانت تفقد الشعور بالحرارة فى هذا الماء المثلج ، ولكنها سرعان ماتعود الى حالة السخونة بمجرد جفافها . هناك فى احد الاكواخ التى يأوى اليها الصيادون فى شهر اكتوبر عندما يخرجون لافتناص الحمام البرى كانت الفتاتان تجلسان على نحو ماتفعلان فى ذلك الصالون المظلم . لم يكن يجرى بينهما اى حديث ، او اية كلمة . كانت الدقائق تمر متتابعة فى هذه الجلسات البريئة من غير ان تصدر عن الفتاتين اية حركة ، وكان كلا منهما صياد ينظر الى الطير يقترب وقد رفع اصبعه بعلامة الصمت والسكوت . وكان يبدو لهما وهما فى تلك اللحظات ان اية حركة عارضة قد تقضى على هنائهما هذا المبهم العفيف . كانت آن هى دائما البادئة بتبديد هذا الصمت عندما تقف منتصبة وتتمطى . فهى متعجلة لقتل بعض القنابر فى وقت الغسق . اما تيريز فكانت تمقت هذه اللعبة ولو انها تتبع صديقتها فيها ، فهى لاترتوى من الوجود الى جوارها . كانت آن تأخذ البندقية عيار ٢٤ المعلقة على الحائط لانها عند اطلاقها لاترتد الى كتف الرامى . اما صديقتها فكانت تظل قابعة فوق الربوة العالية تنظر اليها وهى وسط الشوفان تصوب سلاحها نحو عين الشمس كانما تريد اطفاءها . كم من مرة سدت تيريز اذنيها بيديها بينما تنقطع فى زرقة السماء صرخة سكرى وتسرع الصائدة فتلتقط الطائر الجريح وتضغطه فى يدها بحرص وعناية ثم تخنقه وهى تمس بشفتيها ريشه الداقىء .

— ستأتين الى غدا ؟

— اوه ... لا ... ليس كل يوم ! ...

انها لم تكن تتمنى رؤيتها كل يوم . هذا قول معقول لا وجه للاعتراض عليه . وما من احتجاج عليه الا بدا فى نظر تيريز نفسها

Looloo
www.dvd4arab.com

شيئا غير مفهوم . ان آن تفضل الا تعود ثانية ، وما كان هناك من شيء ، بلا شك ، يحول بينها وبين العودة . ولكن هل من سبب يدعو الى تكرار اللقاء بينهما كل يوم ؟ كانت آن تقول انها تخشى ان ينتهي بهما الامر الى الخصام والتنافر .. فترد عليها تيريز قائلة :

– نعم ... نعم ... لا تجعلي من ذلك عليك فرضا .. عودي كلما شئت .. حينما لا يكون لديك ماهو احلى من المجيء .

كانت الفتاة المراهقة تسرع على اثر ذلك فتمتطي دراجتها ثم تختفي في الطريق الذي بدا يتلفلف في الظلام وهي ترسل الدقات بين جرسها .

كانت تيريز تعود وحدها الى البيت بينما المزارعون يرسلون اليها تحياتهم من بعيد ، ويبتعد الاطفال عن طريقها فلا يقربونها . انها الساعة التي تنتشر فيها النعاج تحت اشجار البلوط ثم تفزع كلها معا جارية بينما الراعي يطلق صرخاته . كانت عمتها في انتظارها على عتبة المنزل وكل عجوز صماء اندفعت تطلق الكلمات سيلا لاينقطع حتى لاتوجه اليها تيريز كلاما فلا تسمعه . ماهذا الشعور بالقلق الذي يساورها ؟ لم يكن بها ميل الى القراءة ولا ميل الى اي شيء . ها هي قد عادت تهيم على وجهها من جديد بينما عمتها تصرخ قائلة :

– لاتبتعدي .. ستعد المائدة حالا ..

كانت تعود الى حافة الطريق وقد خلا من كل اثر للحياة على مدى مرمى بصرها . الجرس يدق على باب المطبخ ربما انقضى الامر هذا المساء ان يضاء المصباح . لم يكن الصمت القابع على الكون في تلك اللحظات بأثقل على هذه الشابة العابسة منه على المرأة الصماء الجالسة بلا حراك مربعة ساعديها على المنضدة .

* * *

برنار .. برنار .. كيف ادخل بك الى هذا العالم المضطرب ؟ انت الذي تنتمي الى الطائفة التي لا ترى ، طائفة البسطاء التي لا تهدأ ؟ .

قالت تيريز لنفسها : « لكنه سوف يقاطعني عند كلماتي الاولى ويقول لي : لماذا تزوجت بي ؟ . انني لم اكن اجري وراءك » ..

حقا .. لماذا تزوجت به ؟ . انه لم يتمهل قط هذا الزواج .. تذكرت تيريز كيف كانت مدام فكتور دي لاترف أم برنار ، تقول لكل من قابلها :

– كان في استطاعته ان يتمهل .. ولكنها هي التي ارادت ذلك .. هي التي ارادت ذلك .. هي التي ارادت ذلك .. انها لسوء الحظ لا تتبع نفس المبادىء التي نتبعها ، فهي مثلا تدخن كجندي المطافىء . هذه نزوة بلا شك تريد بها ان يكون لها طابع خاص . ولكن لها طبيعة مستقيمة وفيها صراحة الذهب . اننا سرعان ما نتمكن من استعادتها الى الآراء السليمة .. حقا ، لسنا نرى كل شيء في هذا الزواج باسما .. نعم .. هناك الجدة بيلاد .. هذا أمر اعرفه جيدا .. ولكنه مضى في طي النسيان .. اليس كذلك ؟ . لا يكاد المرء ان يقول كانت هناك فضيحة .. لقد احكم الكتمان حولها سريعا .. هل تعتقد انت في صحة قوانين الوراثة ؟ ان طريقة تفكير الأب نفسه فاسدة .. هذا شيء معروف .. ولكنه لم يعط ابنته الا كل مثل طيب .. انه قديس ملحد .. ثم انه طويل الباع واسع الحول .. ونحن في حاجة الى الناس جميعا .. واخيرا هناك ما يدعو المرء الى ان يمر على بعض الاشياء مر الكرام .. ثم .. ولك ان تصدقني اذا شئت .. انها اغنى منا .. امر غير معقول طبعا .. ولكنها الحقيقة .. وهي فوق ذلك كله تعبد برنار .. الامر الذي يجعل كل شيء على ما يرام .

نعم .. لقد عبدته ، فما كان ايسر اليها من الوقوف هذا الموقف الذي لا يقتضيها كبير عناء ، اذ يكفيها في الصالون في ارجلوز او تحت اشجار البلوط على حافة الحقل ان ترفع نحوه عينيها وهي خبيرة بطريقة شحنهما ببراءة العشق . وكان جثو هذه الوالهة عند قدمي الفتى يملؤه غرورا من غير ان يثير لديه الدهشة . ولطالما قالت له امه : « لا تلعب معها ، انها تقتل نفسها .. »

* * *

« لقد تزوجته لاني ... » قالت تيريز لنفسها ذلك وهي مقطبة الجبين - وقد وضعت يدها على عينيها واخذت تبحث في ذاكرتها . هل كان الدافع لها هو تلك السعادة الصبيانية التي كانت تحدو بها

Looloo
www.dvd4arab.com

لأن تصبح زوجة لاخى صديقتها آن ؟ لا .. لقد كانت آن هى التى تشعر بالجانب الأكبر من هذه السعادة ، أما تيريز فلم يكن هذا الرباط يعنى شيئا كثيرا بالنسبة لها .. حقا ، هل يجدى الخجل من الحقيقة شيئا ؟. الم تكن الألفان من الهكتارات التى يمتلكها برنار شيئا هاما فى نظرها ؟ . كثيرا ما قالوا عنها : « ان الملكية تختلط دائما بدمها .. » ولطالما كانت تيريز — بعد الانتهاء من تناول وجبات الطعام الطويلة ، وفى الوقت الذى يتناول فيه الرجال كئوس الشراب — تبقى بينهم تستمع الى أحاديثهم حول المزارعين واخشاب المناجم وعصارات اشجار الصنوبر وسوائل التربنتين . ان تقديرات الأملاك وحساباتها دائما تستهويها .. لا شك أن سيادتها على المساحات الشاسعة من الغابات كانت تبهرها .. » لقد كان هو الآخر يعشق اشجار الصنوبر التى املكها .. » بل لعل تيريز قد استجابت فى ذلك الى شعور آخر اكثر ابهاما هو الذى تحاول الآن ان تبرزه الى الضوء فى ذهنها . الم يكن ما تبحث عنه فى هذا الزواج ليس هو السيادة ، وليس هو التملك وانما هو الملجأ التى يحتويها ؟ . الم يكن الدافع الذى أسرع بها الى اتمامه هو الشعور بالرعب والفزع ؟ . لقد كانت فى طفولتها رصينة رزينة وكانت فى مراهقتها صبية محبة للبيت وشئونه ، ثم احست بالحاجة الى سرعة الانتظام فى المركز المناسب لها واحتلال مكانها الدائم . لقد ارادت ان تؤمن نفسها من خطر لا تدرى ما هو . لم تظهر تيريز قط من قبل تعقلا مثل الذى أظهرته فى فترة خطوبتها . الم تكن تستعد للاندماج ضمن كتلة عائلية ؟ . الم تكن تسعى الى الاستقرار ، الى سلوك طريق الجماعة المنظمة ، الى الخلاص والنجاة ؟ .

* * *

ذلك الربيع الذى عقدت فيه خطبتهما — كانا يسيران هى وهو فى طريق الرمال الذاهب من ارجلوز الى فلميجا . اوراق البلوط الميتة معلقة بالأغصان كأنها بقع تلوث صفحة السماء الزرقاء . الأرض مكتسية رداء من السرخس الجاف وقد برزت فى ثناياه هنا وهناك سيقان جديدة فى لونها الاخضر الليمونى . قال برنار :

« تنبهى لسيجارتك ... قد تحدث حريقا آخر ... لم تبق فى المنطقة مياه ... » سألته تيريز :

— هل صحيح ان السرخس يحتوى على حمض السنهدريك ؟ .

لم يكن برنار يدرى هل يحتوى هذا النبات على ما يكفى من السم لقتل انسان ، ولكنه قال لها فى رقة :

— هل بك شوق الى الموت ؟ ..

ضحكت وهو يقول لها انه يريدها ان تصبح اكثر بساطة . اغلقت تيريز عينيها وتركت رأسها بين يديه الكبيرتين يطوقها ويهمس فى أذنها :

— ما زال هذا الراس عامرا ببعض الآراء الفاسدة ...

قالت :

— عليك انت ان تزيلها يا برنار ..!

وقفا يشاهدان البنائين وهم يضيفون حجرة الى مبانى مزرعة فلميجا . ان أصحاب المزرعة ، المقيمين فى بوردو ، ينوون تخصيص هذه الحجرة الجديدة لاقامة اصغر ابنائهم المصاب بذات الرئة بعد ان ماتت ابنتهم بهذا الداء نفسه . عائلة ازيفيدو هذه ... لم يكن برنار يشعر نحوها الا بالاحتقار والازدراء .

انهم يقسمون اغلظ الايمان على انهم ليسوا من أصل يهودى ... ولكن يكفى النظر اليهم ... وهم فوق ذلك مصابون بمرض السل ... وبكل الامراض ...

تيريز هادئة لا تتكلم . تذكرت أن آن ستعود قريبا من دين سان سبستيان لعقد قرانها . ستصحب ابن ديجلهيم الى الكنيسة وتجمع من تبرعات المصلين . لقد كتبت الى تيريز تطلب منها موافاتها « برجوع البريد » بوصف للثياب التى سوف ترتديها فى حفلة زفافها فتيات الشرف الاخريات . وتسأل :

— الا يمكن أن تبعثى لى بعينات من القماش ؟ أليس من مصلحتهن جميعا ان يخترن الوانا متناسقة ..؟

Looloo
www.dvd4arab.com

لم يعرف قلب تبريز من قبل هدوءا مثل هـــذا الهدوء أو ما أكانت تظنه هدوءا ، وهو فى حقيقته نعاس الحية الكامنه فى صدرها أو لعله بياتها ...

- ٤ -

يوم الزفاف الخانق فى كنيسة سانت كلير الضيقة حيث تعلو ثرثرة السيدات على صوت الارغن المتهالك ، وحيث تطفى عطورهن على عبيق البخور . فى ذلك اليوم احست تبريز بالضياع . لقد دخلت بلا شعور فى القفص ، تلك الطفلة البائسة ، ولم تفق من غفلتها الا على فرقعة الباب الثقيل وهو يغلق من خلفهـا . لم يتغير شىء فى حياتها ولكنها احست انها لن تستطيع بعد اليوم الانفراد بنفسـها الضائعة . فى مجاهل الأسرة الكثيفة ، كان عليها أن تخفى عواطفها فى صدرها جاعلة من هذه العواطف ما يشبه النار المندســة تحت الأعشاب تشعل شجرة من اشجار الصنوبر ثم شجرة أخرى ثم تنتشر من مكان الى آخر فتحيل الغابة الى شعلات متقدة . ليس بين وجوه هؤلاء القوم وجه تستطيع أن تريح عينيها بالنظر اليـه غير وجه آن . لكن السرور الصبيانى الذى غمر هذه الشـــابة عزلها عن تبريز . أى سرور هذا ..؟ هل تجهل آن انهما منذ تلك الليلة ستفترقان عن بعضهما بلا عودة ؟ ولن تقتصر الفرقة بينهما على المكان فقط ، خصوصا وان تبريز كانت فى لحظة التألم لما سوف يصيب جسدها البرىء من تلوث لن تمحى آثاره ابدا . ستبقى آن على ذلك الشاطىء الذى تنتظر فيه المخاوف الطاهرات بينما تذوب تبريز وسط قطيع اللواتى قضى منهن الوطر . تذكرت انها ، وهى فى بهو الكنيسة تميل على ذلك الوجه الضاحك الصغير تقبله وقـد ارتفع نحوها ، لاحظت فجاة الفراغ الذى طالما حلقت من حـوله عوالم واسعة من الألم المبهم والسرور الساذج . اكتشفت فى مدى بضع ثوان الفارق اللانهائى بين القوى الغامضة التى تعتمل فى قلبها وبين ذلك الوجه الحلو الملطخ بالمساحيق .

ظل القوم زمنا طويلا فى سانت كلير وما جاورها لا حديث لهم ، بعد ذلك اليوم ، الا عن هـذا الزفاف وعن الوليمة العـامره التى

اقيمت بمناسبـته واكل فيها وشرب اكثـر من مائة مزارع تحت اشجار البلوط . حديثهم لا يخلو قط من ذكر العروس التى هى « بلا شك ليست جميلة كل الجمال ولكنها السحر بعينه » . لقد بدت للجميع فى ذلك اليوم دميمة بل وقبيحـة الى أقصى حـدود القبح .

لم تكن على ما عهدناه فيها من ملامح ... لقـد كانت شخصا آخر ...

هكذا قال القوم وكل ما راوه منها هو الاختـلاف فى مظهرها الذى تعودوه ، وقد نسبوا ذلك الى ملابس الزفاف البيضاء والى حرارة الجو . لقد غاب عنهم وجهها الحقيقى .

فى مساء يوم الزفاف الذى اختلطت فيـه العادات الريفيـة بالتقاليد الحضرية اقبل الناس جماعات تزهو وسطها ثياب الفتيات بالوانها الفاقعة .

اضطرت السيارة التى استقلها العروسان الى الابطاء من سرعتها وسارت وسط الهتافات والتهليلات . انطلقا بعد ذلك على الطريق المكسو بزهور اشجار السنط وتقدما العربات المتمايلة التى يقودها اجلاف سكارى . تذكرت تبريز الليلة التى تلت ذلك اليوم فتمتمت قائلة : « لقد كان امرا بشعا .. » ثم استدركت : « لا .. ليس بشعا الى هذا الحد .. » . تساءلت هل تألمت كثيرا فى اثناء تلك الرحلة التى قاما بها فى منطقة البحيرات الايطالية ؟ . كلا .. كلا .. لقد تسلت بلعبة ابتدعتها ، هى عدم البوح باحساساتها وكتمـان مشاعرها . ربما كان من السهل تمثيل الاحاسيس مع الخطيب وخداعه بها . ولكن مع الزوج كان الأمر يختلف !. ان الـكلمات الكاذبة يستطيع كل انسان أن يقولها ، ولكن اكاذيب الجسد تتطلب علما ودراية . لن يستطيع انسان أن يخادع فى اظهار الرغبة والسرور والارهاق الهنىء ويتقن الخداع . لقد عرفت تبريز كيف تخضع جسدها لهذا الخداع وتذوقت كل ما فى هذا التظاهر والتمثيل من لذة مريرة . عالم مجهول تتصادم فيه الاحساسات ورجل يدفعها الى الدخول فيه دفعا . مخيلتها توحى لها بأنها قد تجد هى الاخرى فى هذا العالم بصيصا من الهناء . ولكن اى هناء هذا .. ؟ انه يشبه

Looloo
www.dvd4arab.com

المنظر الطبيعي الذى تاهت معالمه تحت مياه المطر المنهمر وقدوقف المشاهد امامه يتأمله ويتخيل ما يكون عليه فى ضوء الشمس الساطعة .. هكذا اكتشفت تيريز اللذة .

برنار ! .. هذا الصبى ذو النظرة القاحلة ! .. انه لا يكف عن الشكوى من اختلاف أرقام اللوحات عن الأرقام الواردة فى دليل المتحف ! . انه يبدى السرور كله لتمكنه من رؤية كل ما يجب رؤيته فى اقل وقت مستطاع ! . يا له من غر يسهل خداعه وتضليله ! انه حبيس سعادته كتلك الخنازير الصغيرة اللطيفة التى يعجب المرء منظرها من خلف السياج وهى تخوض سعيدة هانئة وسط معلفها . وقد كنت انا هذا المعلف ! . تذكرت تيريز امارات العجلة والانشغال والجد التى كانت تبدو عليه ، ثم تذكرت كيف كان متزنا خبيرا . سألته يوما فى حيرة :

ـ هل تظن حقا ان ذلك عمل حكيم ؟.

فضحك وطمأنها . من اين له هذا العلم بتصنيف كل مايتعلق بشئون الجسد ؟ من اين جاءته تلك الخبـرة فى التمييز بين اساليب الرجل الشريف فى الحب وبين اساليب الرجل المريض ؟ لم يكن فى هذه الامور يعرف التردد قط . لقد حدث فى احدى الامسيات وهما فى باريس حيث توقفا لفترة فى طريق العودة ان خرج محتجا ثائرا من احد الملاهى الليلة وقد نال منه الاشمئزاز من المناظر التى تعرض فيه . قال :

ـ أهذا كل ما يعرض على الاجانب هنا ؟.. يا للعار ...! انهم يحكمون علينا بما يرونه من هذه المناظر الفاضحة ...!

وقد شعرت تيريز بالاعجاب يغمرها لان هذا الرجل العف الغيور هو الذى سوف يقهرها بعد مضى ساعة او بعض ساعة على معاناة ما برع فى اختراعه من اساليب الظلام .

ـ مسكين برنار ... انه ليس اسوأ من غيره ...! ولكن الشهوة تحيل الشخص الذى يقربنا الى مسخ ليس بينه وبين الانسان شبه وما من شىء أقدر على التفريق بيننا وبين شريكنا فى المتعة من النشوة التى تظهر عليه . لطالما رأيت برنار وهو يغوص فى اللذة بينما كنت انا كجثة هامدة اتظاهر بالموت كما لو كنت اخشى

ان يحاول هذا الرجل المجنون المصروع ان يخنقنى اذا ما بدت منى حركة . وكثيرا ما كان يحدث وهو على حافة نشوته القصوى ان يكتشف فجاة وحدته وانفراده فتنقطع فى الحال جهوده المتشبثة الكئيبة وعندما يكر الى عائدا يجدنى كما لو كنت امراة لفظهاالبحر من جوفه فظلت على شاطئه غاصة على اسنانها باردة .

رسالة واحدة من آن . كم تكره هذه الصغيرة الكتابة . ما من سطر فى هذه الرسالة الا واعجبت به تيريز . قلما تعرب الرسائل عن عواطفنا على حقيقتها ، قلما تصورها بنفس الاحساس الذى تحدثه فى نفوسنا والذى يحمل على قراءتها فى سرور . تشكو آن من انها لم تعد تستطيع الذهاب الى فلميجا منذ ان سكنها ابن ازيفيدو . لقد نظرت على البعد الى مقعده الطويل الممدد وسط نباتات السرخس . ان منظر المصدورين يملؤها رعبا .

* * *

كثيرا ما قرات تيريز هذا الخطاب من غير ان تتوقع قدوم غيره لذلك كانت دهشتها عظيمة ، فى صبيحة اليوم التالى لتلك الامسية التى قطعها برنار فجاة فى الملهى الليلى ، عندما تعرفت على خط آن فوق خطابات ثلاثة جاء بها البريد . اشارات عديدة الى « شبابيك البريد » انتهت بهذه الرسائل الى باريس . ذلك انهما تخطيا متعجلين مراحل عديدة من الرحلة لسرعة الوصول « الى وكرهما » كما يقول برنار . لكنهما فى الحقيقة تعجلا العودة لضيقهما بالبقاء معا . لقد كان برنار . يذوى مللا لبعده عنبنادقه وعن كلابه وعن الحانة التى يتميز فيها شراب البيكون الرمانى بمذاقه لا يلقاه فى اى مكان آخر ثم وجود هذه المراة الى جواره باردة ساخرة لا تفصح قط عن سعادتها ولا تحب التحدث فيما يهمه من الامور . اما تيريز فكانت تتعجل العودة الى سانت كلير لانها كانت كالمنفية التى ملت البقاء فى السجن المؤقت وتاقت نفسها الى رؤية الجزيرة المنعزلة التى قدر لها ان تقضى فيها ما تبقى لها من ايام الحياة . تفحصت تيريز فى عناية التواريخ المطبوعة على اغلفة الرسائل الثلاث ، وما كادت تضع اقدامها حتى أطلق برنار زفرة مصحوبة ببضع كلمات لم تفهم لها معنى . لقد كانت الخادمة

Looloo
www.dvd4arab.com

مفتوحة وسيارات الاوتوبيس فى ذلك المفترق تنتقل سريعة محدثة ضجيجا يصم الآذان . توقف عن حلاقة ذقنه ليقرأ خطابا جاءه من أمه . مازالت تيريز تذكر حتى الآن صدريته المصنوعة من النسيج الرخو وذراعيه العاريتين المتخمتين بالعضلات وجلد جسمه الشاحب . تذكرت فجأة اللون الاحمر القانى المنتشر على عنقه وفى وجهه . لقد كانت الحرارة فى صبيحة ذلك اليوم من ايام يولية تفوح منها رائحة الكبريت ، وكان ضوء الشمس المليء بالدخان خارج الشرفة يضفى على واجهات المبانى الجامدة مزيدا من القذارة والوسخ . اقترب من تيريز وهو يصرخ :

ـ اما هذا فشيء فظيع ... تصورى ... صديقتك آن ... انها تتعدى الحدود ... من يقول ان اختى الصغيرة ...

واذ نظرت اليه تيريز مستفهمة قال :

ـ هل تصدقين انها مفرمة بابن ازيفيدو ؟ نعم انها تحبه ... هذا المصدور الذى من اجله اجريت التوسيعات فى فلميجا ... نعم ، نعم ... ان الامر يبدو جد خطير ... تقول انها تنتظر الى ان تبلغ سن الرشد ... خطاب أمى يقول انها جنت جنونا تاما .. ! ليت عائلة ديجلهيم لا تعلم شيئا من ذلك ، والا فقد يحجم ابنهم الشاب عن التقدم بطلبه ... هل وصلتك رسائل منها ؟ سنعلم شيئا عن ذلك ... هيا اسرعى الى فضها كلها ...

ـ بل اريد ان اقراها بترتيبها . على انى لن استطيع اطلاعك عليها .

من هذا الرد القاطع عرف برنار فى زوجته طبعها وطبيعتها ، انها تشيع الاضطراب فى كل شيء . انما المهم فى نظره هو ان تعيد الفتاة الصغيرة الى رشدها وعقلها .

ـ ان الاسرة تعتمد عليك فى ذلك ... ان لك سلطانا عليها ... حقا ، حقا ... انهم ينتظرون عودتك على احر من الجمر ، ففيها نجاتهم جميعا ...

اتفقنا على ان تقوم تيريز لترتدى ملابسها بينما يذهب برنار

لارسال برقية ولحجز مقعدين لهما فى قطار الجنوب السريع . قال لها ان فى استطاعتها ان تبدأ فى اعداد الحقائب للسفر ثم سألها

ـ ما الذى تنتظرينه لتقرئى خطابات الصغيرة ؟

ـ ان تغادر هذا المكان .

* * *

انقضى وقت طويل بعد ان اغلق برنار باب الغرفة . تيريز مستلقية فى رقدتها تدخن السجائر وتنظر ساهمة الى الحروف الذهبية الكبيرة التى علاها التراب على حائط الشرفة المواجهة ، فضت الغلاف الاول . لا ، لا ... لم تكن تلك البلهاء الصغيرة العزيزة ، لا يمكن ان تكون تلك الفتاة البريئة التى تلقت فى الدير تربية ذهنية محدودة ، هى التى كتبت هذه الكلمات النارية ... لا يمكن ان ينبع من ذلك القلب الجاف ـ فقد كان قلب آن جافا ولعل تيريز تعرف ذلك ـ هذا اللحن الحلو الذى يشبه نشيد الاناشيد ، هذه الآهة الطويلة السعيدة المنبعثة من المرأة التى اكتملت لذتها ، من الجسم الذى يذوب سعادة لدى اللمسة الاولى .

ـ ... عندما قابلته لم يكن فى استطاعتى ان اتصور انه هو . لقد كان يلهو بالجرى مع الكلب وهو يطلق الصرخات . كيف كان بوسعى ان اظنه هذا المريض المصاب اصابة جسيمة ... انه ليس مريضا وانما هى احتياطات يتخذونها بسبب الكوارث التى حلت بعائلته . هو ليس بالهزيل وانما هو نحيف فقط ... ثم هو معود على التدليل والملاطفة ... انى تغيرت كثيرا ولن تعرفيننى الآن .. تصورى ... انى اذهب بنفسى لاحضار السترة له عندما تهبط الحرارة ويبرد الجو ..

* * *

لو دخل عليها برنار فى تلك اللحظة لرأى ان هذه المرأة الجالسة على السرير ليست هى زوجته وانما هى انسان لا يعرفه ، مخلوقة غريبة عنه لا اسم لها . القت بسيجارتها ومزقت الظرف الثانى ،

« ... سأتدرع بالصبر طوال المدة اللازمة ... ما من مقاومة تخيفنى .. وان حبيبى لا يدرى شيئا من ذلك ... انهم يحجزونني

Looloo
www.dvd4arab.com

فى سانت كلير ولكن ارجاوز ليست بعيدة . لا يصعب علينا اللقاء جان وانا . هل تذكرين برج الحمام البرى ؟ لقد اخترت انت يا عزيزتى من قبل المكان الذى قدر لى ان اعرف فيه اللذة ... لا ... لا تظنى بنا الظنون ، اننا لا نرتكب اثما ... هو رقيق كل الرقة . قلما تتصورين شابا من هذا الطراز ... لقد درس طويلا وقرأ كثيرا مثلك انت . ولكن المعرفة الواسعة لا تضايقنى اذا توفرت لشاب ، لهذا لم افكر ابدا فى مداعبته بالتهكم عليه من اجل ذلك . كم اتمنى ان اكون على مثل ما انت عليه من علم ودراية . وقد اضحى بكل شىء لاكون مثلك . عزيزتى ، ما هى تلك السعادة التى توفرت لك انت ولم اعرفها انا بعد والتى تجعل من مجرد القرب شيئا لذيذا كل هذه اللذة ؟ عندما اكون الى جواره ، فى برج الحمام الذى كنت تصرين على ان ناتى اليه بغدائنا ، اشعر بالسعادة تملأنى كأنها شىء استطيع لمسه . اقول لنفسى ان هناك على الرغم من ذلك هناء ابعد حدودا من هذا الهناء . وبعد ان يفارقنى جان ، وقد شحب وجهه ، تطل ذكرى مداعباتنا مائلة فى قلبى ، واعيش فى انتظار ما سوف ياتى به الغد . انى اصم اذنى عن التضرعات والسباب التى يواجهنى بها اهلى ، اولئك القوم الذين لا يفهمون شيئا ... الذين لم يتذوقوا حلاوة ذلك ... عزيزتى ، اغفرتى لى . انى احدثك عن هذه السعادة كما لو كنت تجهلينها انت ايضا . على انى لست سوى مبتدئة بالنسبة اليك . لذلك اراانى على يقين على انك ستقفين الى جانبنا ضد اولئك الذين يريدون بنا شرا ...

فضت تيريز الغلاف الثالث . لم تجد غير كلمات قليلة كتبت على عجل :

ـ احضرى يا عزيزتى ، لقد فرقوا بيننا . انهم يراقبوننى عن كثب مراقبة شديدة . يظنون انك ستنضمين الى جانبهم . قلت لهم انى اقبل حكمك . سأشرح لك كل شىء عند قدومك . انه ليس مريضا . انا سعيدة واتالم . انا سعيدة لانى اتالم من اجله . انى احب هذا الالم وارى فيه دلالة على الحب الذى نكنه لى ...

***

لم تذهب تيريز فى القراءة الى ابعد من ذلك . لاحظت وهى

تعيد الورقات الى اغلفتها . ان بذاخل احداها صورة فوتوغرافية لم تتنبه الى وجودها من قبل . اقتربت من النافذة وتطلعت بنظرها الى هذا الوجه . شاب اكتسى راسه بشعره كثيف فبدا كبير الحجم . عرفت تيريز فى الصورة المكان الذى التقطت فيه . انه ذلك التل الذى طالما وقف عليه جان ازيفيدو منتصبا كانه تمثال داود وق الخلف ارض جرداء ترعى فيها بعض النعاج . انه يحمل سترته على ذراعه وقد كشف قميصه قليلا عن صدره ليتلقى ـ كما تقول آن ـ « اخر اللمسات المباحة » . رفعت تيريز عينها ونظرت مشدوهة الى وجهها فى المرآة . شعرت بحاجة الى بعض الجهد لتفك ما بين اسنانها المنقبضة ولتبتلع ريقها . دلكت صدغيها وجبهتها بماء الكولونيا . قالت تخاطب نفسها :

ـ انها تذوق هذه السعادة ...! كيف بى انا ...؟ انا ... لم لا اذوقها انا ايضا ...؟

القت بالصورة على المنضدة فاذا بدبوس يلمع بالقرب منها .

ـ لقد فعلت انا هذا ... انا التى فعلت هذا ...

كررت تيريز هذه الكلمات وهى فى مقعدها داخل هذا القطار المترنح وقد اندفع مسرعا فوق منحدر من القضبان . ثم قالت لنفسها « منذ سنتين مضتا ، فى غرفة ذلك الفندق ، امسكت بالدبوس وثقبت به صورة هذا الشاب فى موضع القلب تماما . لم اثقبه بعنف ، كلا ، ولكن فى هدوء كما لو كان ذلك عملا عاديا . ثم ذهبت الى دورة المياه حيث القيت بالصورة وبهذا هذا الثقب وشددت فوقها سيل الماء الطارد .

***

عندما عاد برنار رآها هادئة كانها شخص اطال التفكير وقرر لنفسه السلوك الذى يسلكه . عاب عليها كثرة التدخين . انها بذلك تسمم نفسها . ان رايها هو الا تعلق اهمية قصوى على مثل تلك النزوات من فتاة صغيرة . تعهدت بان تنير لها الامور ... رحب برنار بالكلمات المطمئنة التى قالتها له تيريز . كان سروره بالغا لشعوره بوجود تذاكر العودة فى جيبه كما كان ارتياحه ظاهرا لان اهله قد بدأوا يلتمسون العون من زوجته . قال انه مصمم ،

Looloo
www.dvd4arab.com

أيا كان الثمن ، على تناول آخر غداء لهما فى هذه الرحلة فى احد مطاعم الغابة . ظل يثرثر وهما فى السيارة التى اكتراها لتنقلهما الى المطعم . تكلم عن مشروعاته فى افتتاح موسم الصيد . قال انه يتوق الى تجربة ذلك الكلب الذى يدربه باليون من اجله وان امه كتبت له تقول ان فرسه لم تعد تمرح بعد ان كوى مكان الداء فيها بالنار ... عدد الآكلين مازال قليلا فى ذلك المطعم الذى بهرهما بكثرة ما فيه من خدم . ظلت تيريز تذكر تلك الرائحة التى عبقت المكان ، رائحة زهور « العطر شاه » تخالطها رائحة الطبخ . لم يكن برنار قد ذاق من قبل نبيذ الراين ، فاستاء لان القوم لا يقدمونه كل يوم . حجب برنار بجسمه الضخم عن تيريز رؤية قاعة المطعم ولكنها من خلف زجاج النوافذ شاهدت السيارات تمرق وتقف فلا تسمع لها صوتا . انها تعرف ان ذلك الشىء النابض المتحرك بالقرب من اذنى برنار هو عضلة الصدغى . ما ان شرب برنار الجرعات الاولى حتى التهب وجهه بحمرة . باله من شاب ريفى قوى جميل لا عيب فيه الا افتقاره طوال هذه الاسابيع الى الفضاء الواسع ينفق فيه ما تجمع فى جسمه من طاقات يومية ولدها الطعام والشراب . انها لا تمقته ولكن ما اشد رغبتها فى ان تبقى بمفردها لتفكر فيما ينتابها من الم ، ولتتحسس موقع هذا الالم من نفسها ! ان كل ما تتمناه هو الا يكون معها فى ذلك المكان ، والا تضطر الى تناول الاكل المفروض وافتعال الابتسامة المتكلفة ، والا تشغل بالها بضرورة رسم الملامح الكاذبة على وجهها واظهار النظرة الخافتة فى عينيها ، وان تستطيع تركيز ذهنها حرا طليقا على هذا اليأس الخفى الذى يملأ قلبها . تذكرت آن فقالت لنفسها : انها مخلوقة تنطلق بعيدا عن الجزيرة القاحلة التى كنت تعتقدين انها ستوف تعيش فيها الى جوارك حتى النهاية ، انها تجتاز الهاوية التى تفصل بينك وبين الآخرين وتنضم الى هؤلاء الآخرين . انها تنتقل من هذا الكوكب الى كوكب آخر ... لا ... هل انتقل قط كائن حى من كوكب آخر ؟ لقد انتسبت آن دائما الى زمرة البسطاء من بنى البشر . لم تكن الا شبحا طالما نظرت تيريز اليها فى الايام الخوالى ، ايام اجازاتهما المنعزلة ، وهى تتكىء برأسها على ركبتيها نائمة . لا . انها لم تعرف ابدا آن دى لاتراف الحقيقة ، لم تعرف

تلك التى تسعى اليوم الى لقاء جان ازيفيدو فى برج الحمام المهجور بين سانت كلير وارجلوز .

قال لها برنار :

— ماذا بك ؟ الا تأكلين ؟... يجب الا تتركى لهم شيئا من الطعام ، انها خسارة نظرا لما يتقاضونه فيه من اثمان غالية ... هل هى حرارة الجو ؟ ارجو الا يصيبك الاغماء ، ما لم يكن ذلك من اثر الوحام ... الذى بدأ ...

ابتسمت تيريز . ابتسم فمها وحده . قالت انها تفكر فى تلك المغامرة التى اندفعت فيها آن . كانت بها حاجة لان تتكلم عن آن . وبينما برنار يعلن اطمئنانه التام مادامت قد تكلفت هى بالامر سألته المرأة الشابة عن السبب الذى من اجله يبدى اهله معارضتهم فى هذا الزواج . ظن برنار انها انما تهزأ منه ورجاها الا تسترسل فى آرائها المتناقضة ، قال :

— اولا انت تعلمين جيدا ان هؤلاء القوم هم من اليهود . لقد عرفت امى الجد ازيفيدو الذى رفض ان يتلقى سر العماد ...

اعترضت تيريز قائلة ان اعرق الاسماء فى مدينة بوردو كلها هى اسماء اولئك اليهود القادمين اصلا من البرتغال . ثم اضافت :

— لقد كان آل ازيفيدو فى اعلى مراتب المجتمع فى الوقت الذى كان فيه اجدادنا ، هؤلاء الرعاة البؤساء ، يرتعدون من الحمى على شواطىء مستنقعاتهم .

— يا تيريز ، لا تكابرى لمجرد الرغبة فى المناقشة . ان اليهود كلهم سواء ... ثم ان هذه العائلة ليس من افرادها الا كل مريض ، كلهم مصدورين حتى نخاع عظامهم . الكل يعلم ذلك .

اشعلت تيريز سيجارة بحركة طالما اشمأز لها برنار وقالت :

— هل لك ان تذكر لى مم مات جدك وابو جدك ؟ ألم تعن آنت عند زواجك منى ، بالتحرى عن المرض الذى ماتت به امى ... ؟ هل تعتقد اننا لو بحثنا بين اسلافنا لما عثرنا على ما يكفى من مرضى السل والزهرى لتسميم العالم بأسره ؟

— انك تفالين كثيرا يا تيريز . اسمحى لى ان اقول ، ولو على سبيل المزاح والتفاخر : ليس لك ان تمسى امجاد العائلة !

Looloo
www.dvd4arab.com

انتفخ صدر برنار ضيقا وهو يريد ان يبدو متعاليا امام تيريز من غير ان يثير لديها السخرية . ولكنها عادت تقول فى اصرار :

— ان عائلاتنا تضحكنى بما تبديه من حذر سخيف . هذا الرعب من العاهات الظاهرة لا يعادله الا التعامى عن عاهات اخرى اكثر من هذه عددا ولكنها خفية ... انت نفسك ، انك تستعمل عبارة الامراض السرية ... اليس كذلك ؟.. هلا اعترفت بان اخطر الامراض على الجنس هى بطبيعة تعريفها ادواء سرية...؟ هذه حقيقة لا تتنبه اليها عائلاتنا ابدا بينما هى تتفاهم جيدا فيما بينها على دفن كل ما علق بها من ادران واقذار . لولا الخدم لما عرف قط شىء من ذلك . هناك لحسن الحظ الخدم ...!

— لن ارد عليك . عندما تندفعين هكذا ، يكون من الافضل الانتظار الى ان تنتهى الثورة . ان ثوراتك معى لا تحدث الا ضررا قليلا . فانا اعرف انك تلهين . اما هناك فى المنزل فالامر على خلاف ذلك . انت تعرفين ان النتائج لن تكون طيبة . نحن لا نتهاون فى اى امر يتعلق بالعائلة ...

العائلة ...! تركت تيريز سيجارتها تنطفىء وقد تسمرت نظرتها : انها ترى فى مخيلتها هذا القفص المحاط بسياج لا عدد له من الاحياء ، هذا القفص المبطن بالاذان والعيون والذى قضى عليها ان تعيش فى داخله جامدة لا تتحرك وقد جلست القرفصاء واضعة ذقنها بين ركبتيها ضامة ساقيها بذراعيها فى انتظار الموت البطىء.

قال لها برنار :

— هيا يا تيريز ، بددى هذا العبوس . لو نظرت لوجهك الآن ابتسمت واعادت الى وجهها قناعه الاول وقالت :

— اننى كنت الهو ... يالك من ساذج يا عزيزى ...

ولكنها حينما جلست معه فى السيارة لتعود بهما الى الفندق واقترب منها دفعته بيدها وابعدته عنها .

فى تلك الليلة الاخيرة التى سبقت عودتهما الى البلدة ذهبا الى الفراش فى الساعة التاسعة . تناولت تيريز حبة من دواء منوم ولكنها انتظرت النوم طويلا فلم يات اليها . فى لحظة ما غلبها النعاس واذا ببرنار يتقلب فى نومه وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة. شعرت بهذا الجسم الكبير الملتهب يلاصق جسمها فابعدته عنها

ارادت الا تعانى بعد ذلك من مجاورة هذه النار لها فتمددت على الحافة البعيدة للفراش . بعد بضع دقائق تدحرج الجسم الكبير مرة اخرى نحوها كما لو كان الجسد فيه ما يزال حيا برغم غياب العقل منه ، وكما لو كان يبحث حتى فى نومه عن الفريسة التى اعتاد افتراسها . للمرة الثانية مدت يدها فى عنف شديد ومن غير ان تفلح فى ايقاظه ابعدته عنها . آه ...! لو امكنها ان تبعده عنها بعدا حقيقيا والى الابد ...! لو امكنها ان تلقى به خارج الفراش، ان تقذف به الى الظلمات ...!

ابواق السيارات فى تلك الليلة من ليالى باريس تتجاوب فيما بينها كما تتجاوب فى ارجلوز الكلاب والديكة عندما يزهر القمر ما من نسمة طربة تنبعث من الطريق . اضاءت تيريز مصباحا واتكات على الوسادة تنظر الى هذا الرجل الممدد بلا حراك الى جوارها ، هذا الرجل ذى السبعة والعشرين عاما وقد ازاح عن جسمه الغطاء . ان انفاسه لا تكاد تسمع وقد انتشر شعره الكثيف يغطى جبينه الذى مازال محتفظا بطهره ويكسو صدغه الذى خلا من التجاعيد ها هو ذا نائم كانه آدم وقد تعرى عن ثيابه وتجرد من سلاحه ، نوم عميق كانه النوم الابدى . القت المراة غطاءها فوق هذا الجسم الممدد الى جوارها ونهضت تبحث عن الرسائل التى لم تتم قراءتها ثم اقتربت من المصباح :

— ... لو قال لى ان اتبعه لتركت كل شىء من غير ان التفت برأسى . اننا نقف على الحافة .. الحافة الاخيرة للذة القصوى.. ولكن هذا التوقف بارادته هو لا بمقاومتى انا .. ولعل الاصح ان اقول انه هو المقاوم وانا الراغبة فى الوصول الى تلك النهايات المجهولة التى طالما ذكرها لى قائلا ان مجرد الاقتراب منها يسمو على اللذات جميعا وانه يجب علينا ان نظل بمنأى عنها . انه فخور باستطاعته التوقف عند هذه المنحدرات التى يقول عنها ، ان الآخرين اذا ما سلكوها انساقوا فيها معدومى المقاومة ..

***

فتحت تيريز النافذة ثم مزقت الرسائل الى قطع دقيقة وهى متكئة فوق الهاوية الحجرية التى لم يكن يعكر سكونها فى تلك

Looloo
www.dvd4arab.com

الساعة المبكرة من ساعات الفجر غير عربة متثاقلة . قطع الورق الممزقة تلف وتدور فى الهواء ثم تتهاوى على شرفات الأدوار السفلى . ما هذه الرائحة النباتية التى استنشقتها المراة الشابة؟ من اى الحقول جاءت لتستقر على تلك الصحراء الأسفلتية ؟ مرت بخاطرها صورة لجسدها وقد تناثرت أجزاؤه فوق ارض الشارع وتجمعت حوله اخلاط من رجال الشرطة والعابرين المتسكعين .. لا . ان لتبريز من الخيال ما يحول بينها وبين الانتحار . انها فى حقيقتها لا تتمنى ان تموت . فهناك عمل هام ينتظرها .. عمل ليس محوره الانتقام ، لا ، ولا الحقد . وانما محوره تلك الصغيرة الحمقاء القابعة هناك فى سانت كلير متوهمة ان السعادة يمكن الوصول اليها . يجب ان تعلم هذه الصغيرة ما تعرفه تبريز من ان السعادة لا وجود لها . واذا لم يكن بينهما شىء متشابه فلتشتركا على الاقل فى الملل وفى انكسار الاعتراف بوجود المهام العليا والواجبات السامية ، وفى استحالة توقع اى شىء غير الاعتيادات اليومية الحقيرة . فلتشتركا فى العزلة التى لا يخالطها عزاء . انتشر ضوء الفجر على الاسطح فاضاءها وعادت تبريز الى سريرها بجوار الرجل الممدد بلا حراك .. وما ان القت بجسمها قريبا منه حتى شعرت به مرة اخرى يقترب منها .

استيقظت صافية الذهن موفورة العقل والتفكير . ما الذى ذهب بها الى تلك الأبعاد السحيقة ؟ ان اسرتها تستنجد بها ولسوف تسلك السلوك الذى يرضى اسرتها . فهى بذلك لن تحيد عن الطريق المستقيم . اندفعت تبريز تبدى موافقتها على كل ما يقوله برنار حول ضرورة زواج آن من ديجلهيم وان فشل هذا الزواج يعنى الكارثة الكبرى . ان اسرة ديجلهيم بعيدة عن مستواهم الاجتماعى . حقا ، ان جدها الأعلى كان راعيا من الرعاة . ولكنها اليوم تمتلك اجمل ما فى المنطقة من اشجار الصنوبر ، هذا بينما آن . مهما قيل عنها — لا تعتبر من الأثرياء . ليس لها ان تنتظر من ميراث ابيها غير الكروم القابعة فى قاع الوادى بالقرب من بلدة لانجون حيث تفمرها المياه سنة بعد اخرى .. يجب ايا كان الثمن الا يفشل زواج آن من ديجلهيم .. شعرت تبريز بتقزز شديد

من رائحة الشيكولاته التى انتشرت فى انحاء الغرفة .. هذا الغثيان الخفيف يؤيد العلامات الاخرى ، انها حامل ، قال برنار :

— من الخير ان يأتى ذلك فورا حتى لا نفكر فى امره بعد الآن .

ثم تطلع فى اجلال الى تلك المراة التى تحمل بين احشائها المالك الوحيد لعدد لا يحصى من اشجار الصنوبر .

— ٥ —

سانت كلير .. بعد لحظة ستكون فى سانت كلير .. اخذت تبريز تعيس فى ذهنها الطريق الطويل الذى قطعته افكارها .. هل فى استطاعتها ان تحمل برنار على الوصول معها الى تلك النهاية ؟ انها لا تكاد تامل ان تراه راغبا فى السير بخطى وئيدة على هذا الطريق الوعر . ولكن ما زال باقيا من الأمر جوهره :

— عندما اصل به الى هذا الضيق الذى انا فيه الآن ، سيبقى على ان استكشف كل شىء ، فانى لم اصل الى القرار بعد ..

انحنت تبريز على الطلسم الكامن فى نفسها واخذت تحاور تلك الزوجة الشابة التى طالما اعجب الجميع بحكمتها عندما قدمت من المدينة لتستقر فى سانت كلير .. استعادت فى ذهنها اسابيعها الأولى فى منزل اهل زوجها بعد ذلك الرطب المعتم .. ان نوافذه المطلة على الميدان الكبير كانت مغلقة دائما ، ولكن الجهة اليسرى كانت تطل من خلال السياج على الحديقة الملتهبة بأزهار الهليوتروب والجيرانيوم والبيتونيا . كان هناك لاتراف العجوز وزوجته متحصنين داخل الصالون المظلم الصغير فى الدور الأرضى وكانت هناك آن هائمة وسط تلك الحديقة ، ومحظور عليها مغادرتها ، وكانت تبريز تنتقل بين هؤلاء وهؤلاء تحمل اسرار البعض وتتآمر مع البعض الآخر. كانت تقول للعجوز وزوجته : « فكا عنها الحصار قليلا . اسمحا لها بالسفر فى رحلة قبل ان تتخذ اى قرار . انا كفيلة بأن احصل منها على طاعتها لكما فى ذلك . سأسعى الى ذلك فى غيبتكما » ..

Looloo
www.dvd4arab.com

كيف يتم ذلك ؟ ان لاتراف وزوجته يريان أن « آن » سوف تسارع الى التعرف على ابن ازيفيدو .. كانت تيريز تعترض قائلة :

ـ يا أمى ، انك لن تصلى الى شىء عن طريق الهجوم المباشر .

كانت مدام دى لاتراف ترى ان أخبار ذلك الحدث الجلل لم تتسرب الى الخارج بعد وهى تحمد الله على ذلك .. ليس غير الآنسة مونود عاملة البريد من يعلم بالأمر فقد ضبطت رسائل عديدة قادمة من آن ..

ـ ولكن هذه الشابة تحافظ على الاسرار كأنها القبر . وهى على كل حال فى يدنا ولن تتحدث بشىء .

كثيرا ما كان هكتور دى لاتراف يقول : « علينا الا نجعلها تتعذب الا فى أقل قدر ممكن ..

ولكن ذلك الرجل الذى طالما استجاب الى نزوات آن كلها لم يكن ليستطيع الا أن يوافق على كل ما تقوله زوجته فكان يقول :

ـ لابد لآكل البيض من ان يكسره .. وسياتى يوم تشكرنا فيه على ما فعلنا ..

فكانت تيريز ترد قائلة :

ـ ولكن .. الى أن يأتى هذا اليوم اليس من الممكن أن تصاب بالمرض ؟..

عندئذ كان الزوجان يلوذان بالصمت وعيناهما سارحتان لاشك أنهما كانا يتبعان فى مخيلتهما ابنتهما الذابلة تسير فى وهج الشمس نافرة عن تناول الطعام وهى تطأ بقدميها الزهور التى تراها وتتسلل على طول السياج فى خطوات الظبى الحبيس تبحث عن مخرج لتنطلق منه .. كانت مدام دى لاتراف تهز رأسها وتقول:

ـ ليس فى استطاعتى ان آكل الحساء بدلا منها ، اليس كذلك ؟ انها تملأ بطنها بالفاكهة فى الحديقة لتترك اثناء الطعام اطباقها فارغة ..

بينما هكتور دى لاتراف يقول :

ـ سوف تلومنا فيما بعد اذا ما وافقنا على هذا الزواج ..

لا ، يجب ألا نوافق ولو من اجل الاطفال البؤساء الذين ستأتى بهم الى هذا العالم ..

كانت زوجته لا تخفى حنقها عليه لما يبدو من محاولة انتحال الاعذار لابنته وكانت تقول :

ـ لحسن الحظ ان آل ديجهليم لم يأتوا بعدوانهم متمسكون بهذا الزواج استمساكهم بحبة أعينهم ..

كان الزوجان ينتظران الى ان تغادر تيريز الحجرة ليسائل أحدهما الآخر :

ـ ولكن ، بماذا حشوا راسها فى الدير ؟ ان عينها لم تقع هنا الا على كل قدوة حميدة . لقد راقبنا قراءاتها .. ان تيريز تقول ليس كروايات الحب التى تصدر فى مجموعة الكتب الجيدة للاطاحة بعقول الفتيات .. ولكن كلامها كله متناقض . على ان آن ولله الحمد لا تميل الى القراءة ولم أبد لها قط أية ملاحظة فى هذا الشأن .. فهى من هذه الناحية ربة أسرة كاملة . على انه لو استطعنا أن نتيح لها فرصة لتغيير الهواء ... هل تذكر كم افادتها الرحلة الى سالى بعد اصابتها بمرض الحصبة التى صاحبها الاحتقان الرئوى؟ سنذهب الى حيث تشاء هى .. ليس لدى ما أقوله غير ذلك .. هذه الصبية جديرة بكل عطف فى الحقيقة ..

كان مسيو دى لاتراف يتنهد فى غمغمة ويقول ردا على زوجته :

ـ او ..! رحلة معنا ..؟ لا شىء .. لا شىء ..

بينما الزوجة التى ثقل سمعها تسأله :

ـ ماذا تقول ؟..

تذكر الرجل العجوز فجأة وسط هذا الثراء الذى استقر فيه أين هى رحلة الفرام التى قام بها هو ؟ أين هى ساعات الهناء فى شبابه الواله ؟ .

***

فى الحديقة اسرعت تيريز الى الصبية التى تهدل على جسمها ثوب العام الماضى . سألتها آن عند اقترابها منها :

Looloo
www.dvd4arab.com

ـ ما وراءك ؟..

هـذا الرماد الذى يكسو طرقات الحديقة ، وهذه الحقول الجافة المتفتتة ، وهـذه الرائحة المنبعثـة من ازهـار الجيرانيوم المحترقة . وهذه الفتاة التى تزيد على النباتات ذبولا فى ظهيرة شهر اغسطس الحار ، كل هذا وجدته تيريز فى زوايا قلبها .. وكثيرا ما حدث ان الجأتهما نوبات المطر المفاجىء الى الاحتماء داخل الصوبة حيث كانت حبات البرد المتساقط ترتطم بالزجاج فتنبعث منه اصوات عالية .

ـ ما الذى يمنعك من السفر ما دمت لا ترينه ؟..

ـ انى لا اراه حقا ولـكنى اعرف انه يتنفس على بعـد عشرة كيلو مترات من هذا المكان . وعندما تهب الريح من الشرق اعلم انه يسمع دقات الاجراس فى الوقت الذى اسمعها فيه انا . هل يتساوى عندك ان يكون برنار فى ارجلوز أو فى باريس ؟ انى لا ارى جان ولكنى اعلم انه ليس بعيدا عنى . فى يوم الأحد فى الكنيسة لا احاول ان التفت براسى لان المحراب هو وحـده الذى يرى من حيث نحن جالسون وهناك عمود يفصل ما بيننا وبين الحاضرين ولـكن عند مغادرة المـكان ..

ـ الم يكن هناك يوم الأحد المـاضى ؟..

كانت تيريز تعـلم انه لم يكن هنـاك ، وكانت تعلم أن آن وقد دفعتها أمها دفعا جالت بنظرها وسط الجمع تبحث سـدى عن الوجه الحبيب الغائب .

ـ ربما كان مريضا .. أنهم يحجزون عنى رسـائله .. لا استطيع أن اعلم شيئا .

ـ انه لأمر عجيب حقا الا يجد وسيلة لايصال كلمة منه اليك

ـ لو شئت انت يا تيريز .. نعم ، انى أعلم ان موقفك دقيق.

ـ وافقى على هذا السفر وفى اثناء غيابك ربما ...

ـ لا استطيع البعد عنه .

ـ أيا كان الأمر فهو سوف يذهب يا عزيزتى ، بعد بضعـة اسابيع سيرحل عن ارجلوز .

ـ آه ، اسكتى . انها فكرة لا اطيقها . ما من كلمة منه تعاونني على الحياة ؟ انى لاكاد اموت جزعا . يلزمنى فى كل وقت ان اذكر كلماته التى منحتنى اقصى قدر من السعادة .. ولكن من فرط ما كرر على كلماته لا اكاد اصدق انه قالها لى فعلا .. اليك كلمته هذه فى آخر لقاء لنا مازلت اسمعه يقول :

ـ ليس فى حياتى شخص آخر غيرك ..

ـ نعم هذا ما قاله لى او لعل كلماته كانت « أنت اثمن ما لى فى حياتى » ليس فى استطاعتى ان اذكر الكلمات بالضبط ..

ضمت آن مابين حاجبيها تبحث عن صدى هذه الكلمات الحلوة التى امتدت بمعناها الى آفاق لا نهاية لها ..

ـ ولكن ، ما شكل هذا الشاب ؟

ـ انك لا يمكنك ان تتصورى ما هو عليه .

ـ هل هو يختلف الى هذا الحد عن الآخرين ؟..

ـ بودى ان اصفه لك ولكنه ابعد كثيرا عما استطيع قوله .. ربما وجدته بعـد كل الذى اقوله عنـه شخصا عاديا جدا .. ولكنى على يقين من انه ليس كذلك .

انها لم تلحظ شيئا خاصا تميز به هذا الشاب الذى اضفى عليه حبها له كل هذا الرواء والحسن .. قالت تيريز فى نفسها :

ـ اما انا فان الشهوة تزيد فى صفـاء الذهن فلا يفلت منى شىء يتعلق بالرجل الذى اشتهيه لنفسى ..

ـ تيريز ، هـل اذا قبلت الرحيل ستريننه ؟ هل تحملين الى كلماته ؟ . هل تنقلين اليه رسائلى ؟ . اذا سافرت .. اذا وجدت لدى الشجاعة على السفر .

تركت تيريز عالم الضوء والحمم وعادت مرة اخرى كنحلة تسعى الى داخل حجرة المكتب حيث كان الأب والأم ينتظران هبوط حدة الحر وانكسار عناد ابنتهم .. اضطرت الى الذهاب والمجىء مرات عديدة قبل ان ترضى آن بالسفر .. مما لا شك

Looloo
www.dvd4arab.com

فيه ان تيريز ما كانت لتنجح فى تحقيق هذا التحول لولا قرب قدوم آل ديجلهيم . لقد كانت آن تنتفض فزعا لهذا القدوم ، ولما يمثله من خطر ، خصوصا وان تيريز كانت تكرر لها القول :

ـ ان هذا الشاب الفنى ديجلهيم لا عيب فيه بالمرة كزوج .

ـ ولكن يا تيريز انى لم انظر اليه الا قليلا .. انه يلبس نظارات .. انه اصلع .. انه عجوز ..

ـ انه فى التاسعة والعشرين ..

ـ هذا ما اقوله : انه عجوز .. سواء اكان عجوزا أم غير عجوز ..

***

فى اثناء تناول طعام العشاء تحدث لاتراف وزوجته عن بيارتنر وتساءلا عن فنادقها . اخذت تيريز ترقب آن وهى جسم جامد لا روح فيه .. كانت مدام دى لاتراف تكرر القول لابنتها :

ـ اضغطى على نفسك قليلا .. اضغطى ..

بينما آن تقدم الملعقة الى فمها فى حركة آلية .. ما من لمعة تبرق فى عينيها .. لا شىء لا أجد له وجودا فى نظرها غير هذا الغائب .. من وقت لآخر ترتسم على شفتيها ابتسامة حائرة لذكرى كلمة سمعتها او لمسة مستها يوم ان قابلت جان ازبفيدو فى احد الأكواخ المبنية من فروع الشجر وقد انطلقت يده القوية تمزق جانبا من قميصها .. كانت تيريز تنظر الى برنار وقد انحنى بجسمه فوق الصحفة التى يأكل فيها .. لم تكن ترى وجهه لأن الضوء آت من خلفه ولكنها كانت تسمع مضغه البطىء ولوكه للطعام الذى كان يقدسه .. غادرت تيريز المائدة فقالت حماتها :

ـ انها تفضل الا يراها احد فى تلك الحال .. بودى لو دللتها ، ولكنها لا تحب ان يعنى بها احد .. هذا التعب هو اقل ما تشعر به المرأة فى وضعها هذا .. لها ان تقول ما تشاء ولكنها تفرط فى التدخين ..

ثم انطلقت السيدة العجوز تروى من ذكريات حملها :

ـ انى أذكر حينما كنت أنتظر قدومك ، انى كنت أضطر الى استنشاق رائحة المطاط .. لم تكن هناك وسيلة غير هذه لاعادة أمعائى الى مكانها ..

***

ـ تيريز ، اين انت ؟..

ـ هنا على المقعد ..

ـ نعم .. انى أرى نار سيجارتك ..

تجلس آن ساندة رأسها الى الكتف الجامدة .. تنظر الى السماء قائلة :

ـ انه يرى هذه النجوم .. انه يسمع صلاة المساء ..

ثم تقول :

ـ قبلينى يا تيريز ..

ولكن تيريز لا تنحنى على رأس الصبية وانما تسألها :

ـ هل تتألمين ؟..

ـ لا .. انى لا أتألم هذا المساء .. لقد فهمت انى بطريقة أو بأخرى سوف اجتمع به . انا مطمئنة الآن . الأمر الذى يهمنى هو أن يعرف ذلك وسيعرفه منك أنت . لقد صممت على هذا السفر ولكن عند عودتى سوف أخترق من أجله الحوائط .. ان عاجلا أو آجلا سأرتمى فى أحضانه .. هذا ما انا واثقة منه ثقتى بحياتى نفسها .. لا ، يا تيريز لا .. انت على الأقل لا تعطينى .. لا تحدثينى عن الأسرة ..

ـ اننى لا أفكر فى الأسرة يا عزيزتى وانما أفكر فيه هو .. ان المرأة لا تقتحم هكذا حياة الرجل .. ان له اسرته هو الآخر ، وله مصالحه ، وله عمله وربما كانت له علاقة ..

ـ لا .. لقد قال لى :

ـ ليس لى الا انت فى حياتى ..

وفى مرة أخرى قال لى :

ـ ان حبنا هو الشىء الوحيد الذى أعتز به فى هذه اللحظة ..

ـ فى هذه اللحظة ؟..

ـ ماذا تظنين ؟ هل تعتقدين انه ماكان يعنى الا اللحظة وقتها؟

Looloo
www.dvd4arab.com

لم تعد بتريز حاجة لان تسالها هل هى تتالم ، فقد كانت تسمعها وهى تتالم فى الظلام .. ولكنها ما كانت تحس بشفقة عليها .. لماذا تشفق عليها ؟ ولماذا ترثى لها ؟ ما احلى أن يعيد المرء اسما يدل على الشخص الذى ارتبط به قلبه برباط وثيق ! ان مجرد الادراك بانه عائش حى ، وبانه يتنفس ، وبانه ينام فى الليل ساندا راسه الى ذراعه المطوية ، وبانه يستيقظ فى الفجر ، وبأن جسمه الشاب يمرق وسط الضباب بحركة ..

ـ هل تبكين يا تيريز ؟ امن اجلى تبكين ؟ انك تحبيننى انت ..

جثت الصغيرة على ركبتيها واسندت راسها الى خاصرة تيريز ثم فجأة انتصبت واقفة قائلة :

ـ لقد احسست تحت جنبى شيئا ما يتحرك ..

ـ نعم ، انه منذ بضعة أيام يتحرك ..

ـ الصغير ؟..

ـ نعم .. انه حى يرزق ..

***

عادتا الى المنزل وقد لفت كل منهما ذراعها حول خصر الاخرى كما كانتا تفعلان من قبل على طريق نيزان أو على طريق ارجلوز ، تذكرت تيريز انها خافت من هذا الحمل المضطرب . كم من شهوة تعتمل فى قرارة نفسها سوف تنتقل منها الى هذه المضغة التى لم تتشكل بعد ! .. استعادت تيريز الى ذاكرتها ذلك المساء وقد جلست فى غرفتها الى جوار النافذة المفتوحة وقد صاح عليها برنار من اقصى الحديقة : « لا توقدى النور خوفا من الناموس » لقد اخذت فى ذلك المساء تعد الاشهر الباقية على الولادة وتمنت لو كانت تعرف الى الله سبيلا لتساله الا يبرز ابدا الى الوجود ذلك المخلوق المجهول الذى مازال خليطا مضطربا فى احشائها .

ـ ٦ ـ

الغريب ان تيريز لم تعد تذكر من الايام التى تلت رحيل آن وآل لاتراف الا مايذكره المرء من فترة النعاس والخمول . وفى

ارجلوز ، حيث تم الاتفاق على ان تجد الوسيلة للتاثير على ازيفيدو هذا وحمله على الانسحاب ، لم تكن تفكر الا فى الراحة والنوم . لقد وافق برنار على الا يقيم فى منزله ، وانما فى منزل تيريز حيث وسائل الراحة أوفر وحيث تتولى عنهم العمة كلارا جميع مشاغل البيت . ماذا كان يعنى تيريز من شان الآخرين ؟ ليتول كل واحد شئون نفسه بنفسه . ماكان ليحلو لها شىء قدر هذا الهجوع حتى يحل موعد وضعها . كان برنار يثيرها كل صباح وهو يذكرها بما وعدت من الاتصال بجان ازيفيدو . كانت تيريز تنهره ولا تطيق عليه صبرا الا فى عسر متزايد . ربما كانت حالة الحمل ـ كما يقول برنار ـ ليست غريبة عن حالة الضيق هذه . وهو نفسه كان يشعر باللمسات الأولى لحالة القلق التى تصيب عادة الاشخاص الذين من فصيلته ، والتى قلما تبرز مع ذلك قبل سن الثلاثين . ان الخوف من الموت كان أمرا غريبا من هذا الشاب القوى البنية حتى ليحسبه الرائى مبنيا من الجير والرمل . ولكن ماذا كانت تستطيع تيريز أن تقول له وهو يشكو :

ـ انك لاتدرين بما احس به .. ؟

ان اجسام اولئك الذين ياكلون بنهم شديد وينحدرون من آرومة عاطلة عن العمل كثيرة التغذية لا يتوفر لها الا مظهر القوة والعافية . ان شجرة الصنوبر التى تزرع فى الارض الدسمة وسط الحقول المسمدة تنمو سريعا وتشمخ ولكنها سرعان ماتتعفن فى أحشائها ويقتضى الأمر اقتلاعها وهى فى عنفوان قوتها . لطالما قالوا له ان ذلك من عوارض الأعصاب ؛ ولكن برنار كان يشعر بالشرخ ينتشر وبالداء يسرى . ثم هذا الامر الذى لايصدق : انه لم يعد ياكل كما كان يفعل من قبل ، انه لم يعد يشعر بالجوع .

ـ لماذا لايذهب لاستشارة الطبيب ؟

كان يهز كتفيه ويتظاهر بالاستهتار . ان الشك كان يبدو فى الحقيقة فى نظره اقل هولا من حكم بالموت قد يصدر عليه . كان يحدث أن تنطلق منه فى الليل زفرة تستيقظ لها تيريز مذعورة .. وكانت يد برنار تمسك بيدها وتضغط بها على الجانب الايسر من

Looloo
www.dvd4arab.com

صدره لتتحسس الخفقات . كانت توقد شمعة وتغادر فراشها لتصب بعض الدواء فى كوب من الماء . كانت تعجب من ان يكون هذا المزيج شافيا وتتساءل لماذا لايكون قاتلا ؟ ليس هنـاك شىء يهدىء ، شىء يجلب النوم ، مالم يكن ذلك الى الأبد .. هذا الرجل الشاكى ، ماذا دهاه حتى يخشى الشىء الذى يعطيه الهدوء الى الأبد ؟ . كان يستغرق فى النوم قبل ان تغفل عينها .. كيف يمكن النوم الى جانب هذا الجسم الكبير الذى ينبعث منه الشخير احيانا مصحوبا بالانين المرير ؟ حمدا لله ، انه لم يعد يقربها لاعتقاده ان انفعال التقارب هو من بين حركات الجسم اخطرها على قلبه .

عندما صاحت الديكة فى الفجر لتوقظ الفلاحين ، وعندما دقت اجراس سانت كلير تعلن صلاة الصباح على موجات الريح الشرقية اغلقت تيريز عينيها اخيرا . عندئذ تحرك جسم الرجل وهب مسرعا يرتدى ملابس الفلاحين بعد أن غمس راسه غمسا خفيفا فى الماء البارد .اسرع متسللا كالكلب الى المطبخ يتذوق بقايا خزانة الطعام. أفطر وهو واقف بقطعة من الدجاج وشريحة من اللحم البارد أو بعنقود من العنب مع كسرة من الخبز مدهوكة بالثوم . انها الوجبة الرئيسية الوحيدة التى يتناولها طوال النهار . انه يلقى بشىء من الطعام الى كلبيه فلامبو وديان فيسمع (طرقعة) فكيهما . ان الضباب فى الخارج يفوح برائحة الخريف . هـذه هى اللحظة التى لايشعر فيها برنار بالالم والتى يحس فيها بشبابه القوى يعود اليه .عما قريب ستقبل الحمائم البرية ويجب الاهتمام باعداد صفارات التضليل ، فى الساعة الحادية عشرة يعود الى تيريز فيجدها مازالت فى سريرها نائمة .

ـ اذن ؟ وماذا عن ابن ازيفيدو ؟ انت تعلمين ان امى تنتظر الاخبار فى بيارتيز بشباك البريد ؟

ـ وقلبك ؟

ـ لا تكلمينى عن قلبى . يكفى أن تكلمينى عنه حتى اشعر به من جديد .. طبعا ، هذا دليل على انها حالة عصبية .. الا تعتقدين انت ايضا انها حالة عصبية ؟

« لم تكن تعطيه ابدا الرد الذى يريده ؟ »

ـ لا احد يدرى . انت وحدك الذى تعرف ماتشعر به . ليس سببا ان أباك مات من الذبحة الصدرية .. خصوصا فى سنك هذه .. طبعا ، القلب هو اضعف ما فى افراد عائلة دى كوبرو .. يالك من غريب يا برنار مع خوفك هذا من الموت ! .. الا تشعر انت كما اشعر انا بعدم الفائدة من وجودنا ؟ الا تعتقد ان الحياة بالنسبة للناس الذين على شاكلتنا تشبه الموت ؟

هز كتفيه .. انها تصدعه بمتناقضاتها .. ليس عسيرا على المرء ان يستظرف ، فما عليه الا ان يأخذ فى كل شىء بما يخالف المعقول . ولكنه كان يرى انها تخطىء اذ تجهد ذكاءها معه ، وان من الخير ان تحتفظ بهذا الذكاء لحين لقائها مع ابن ازيفيدو .

ـ انك تعلمين انه سيفادر فليميجا حوالى منتصف اكتوبر .

* * *

عند فيلاندر ـ المحطة التى تسبق سانت كلير ـ فكرت تيريز :

ـ كيف لى ان اقنع برنار باننى لم احب قط هـذا الفتى ؟ سيظن بالضرورة اننى احببته حب العبادة .. انه يعتقد كما يعتقد اولئك الذين يجهلون الحب جهلا عميقا ان جريمة مثل التى يتهموننى بها لايمكن الا ان تكون جريمة عاطفية .

يجب ان يفهم برنار انها فى تلك الفترة كانت ابعد ماتكون عن كراهيته وان بدا لها فى الكثير من الأحيان سخيفا ولـكن لم يكن يجول فى خاطرها أن رجلا آخر فى وسعه ان يمد لها بعض العون . لم يكن برنار على اية حال سيئا الى هذا الحد . لطالما اشمأزت ، فى الروايات التى قراتها من وصف الاشخاص غير العاديين الذين لايصادف المرء لهم شبيها فى الحياة .

ان الرجل الممتاز الوحيد الذى تعتقد انها عرفته هو ابوها . انها تجهد نفسها فى اضفاء شىء من العظمة على هـذا السياسى الراديكالى العنيد المحاذر الذى يلعب على اكثر من حبل . فعلا

Looloo
www.dvd4arab.com

انه من الملاك الصناعيين تراه يمتلك مصنعا لنشر الخشب فى بلده ويتولى بنفسه معالجة عصارات اشجاره واشجار اقربائه العديدين فى مصنع له فى سانت كلير . وهو كرجل سياسى قد عانى كثيرا بسبب طبعه العنيف ، ولكنه على الرغم من ذلك ذو كلمة مسموعة فى دور الحكومة . ما اكثر احتقاره للنساء .. حتى لتبريز نفسها فى الوقت الذى كان الجميع فيه يشيدون بذكائها وفطنتها . انه لا يكف منذ وقوع المأساة عن ترديد قوله :

ـ كلهن مجنونات عندما لا يكن غبيات .

هذا الزنديق كان يبدو عند اللزوم متزمتا .. وعلى الرغم من انه كان يترنم احيانا ببعض الحان بيرانجيه ، الا انه ماكان يحتمل الحديث امامه عن بعض الموضوعات ، ويحمر وجهه خجلا كالمراهن الغرير .. لقد سمع برنار من مسيو دى لاتراف ان لاروك عندما تزوج كان طاهرا لم يقرب النساء من قبل :

ـ ومنذ ان ترمل اكد لى هؤلاء السادة أن احدا لم يعرف قط أن له خليلة .. انه ارجل عجيب ، ابوك هذا ..

ـ حقا .. انه ارجل عجيب ! ... ولكن اذا كانت تبريز تتخيل اياها على البعد فى هذه الصورة البديعة ، فانها سرعان ماكانت تقيس على القرب نذالته . كان مجيئه الى سانت كلير قليلا والى ارجلوز كثيرا ، فهو لا يحب مقابلة آل لاتراف . وعلى الرغم من خطر التحدث فى السياسة فيما بينهم ، فما يكادون يجتمعون على الطعام حتى يتطور النقاش السخيف بينهم الى مرارة .. كانت تبريز تخجل من المشاركة فى حديثهم هذا وكانت تركز كبرياءها فى الا تفتح فمها الا حينما يتطرق الحديث الى المسألة الدينية . عندئذ كانت تهب لنجدة مسيو لاروك . كان الصراخ يتصاعد من كل منهم حتى ان العمة كلارا نفسها كانت تسمح بعض اطراف النقاش فتلقى بنفسها فى المعمعة وتنساب مطلقة صوتها الكئيب ، صوت الصماء العجوز ذات الآراء الراديكالية المتطرفة :

ـ من يدرى ماالذى يحدث فى الاديرة ؟

كانت تبريز ترى ان العمة كلارا فى قرارة نفسها اكثر تدينا من اى فرد آخر فى عائلة لاتراف ، ولكنها فى حرب نفسية بسبب ماهى عليه من الصمم والدمامة والذى قضى عليها بان تموت من غير ان تعرف الحب ومن غير ان يمتلكها رجل . منذ ذلك اليوم الذى غادرت فيه مدام دى لاتراف اتفق الجميع على الايدور الحديث بينهم على الروحانيات فقد كان فى السياسة ما يكفى لاخراج هؤلاء القوم عن وعيهم .. وسواء اكانوا من اليمينيين ام من اليساريين فان بينهم اتفاقا على هذا المبدأ الجوهرى وهو ان الملكية تمثل الخير الوحيد فى هذا العالم وان السبب الاسمى للحياة هو تملك الارض . اما ان يحسب للثار حسابا فى ذلك والى اى مدى يمتد هذا الحساب ، فان تبريز « التى كانت الملكية فى دمها »

كانت تود لو ان السؤال اثير فى مثل هذه الصراحة الجارحة ، ولكنها كانت تكره فى آل لاروك وفى آل لاتراف على السواء تلك المظاهر الكاذبة التى يخفون وراءها مابينهم من شهوة مشتركة . وحينما كان ابوها يعلن عن « ولائه الذى لايتحول للديمقراطية » كانت تقاطعه قائلة :

ـ لا داعى لذلك فنحن الآن بمفردنا .

انها كانت تقول ان الكمال فى السياسة (يقرفها) ان المأساة فى صراع الطبقات كانت تغيب عن ذهنها فى ذلك البلد الذى يمتلك فيه افقر الناس املاكا ولا يطمعون الا فى ان يزيدوا مقدار مايملكون ، ذلك البلد الذى خلق فيه حب الناس المشترك للارض والصيد والاكل والشرب ، اخوة وثيقة بين سكان الحضر والفلاحين . ولكن برنار كان يضم الى هذه الصفات كلها قدرا من التعليم . كان الناس يقولون عنه انه برز من جحره الى الخارج . ان تبريز نفسها كان يسرها ان تجد فيه رجلا يمكن التحدث معه ، رجلا يعلو فوق الوسط الذى برز منه . هذه كانت نظرتها اليه حتى ذلك اليوم الذى قابلت فيه جان ازيفيدو .

* * *

كان ذلك فى الفترة التى تمتد فيها برودة الليل الى صبيحة اليوم كله ثم تنقلب الشمس فى وقت الأصيل الى احر ما تكون عليه

Looloo
www.dvd4arab.com

صيفا بينما الضباب الخفيف ينبىء على البعد عن قرب حلول المساء . لقد مرت الحمامات البرية الاولى وما كان برنار ليعود الى المنزل الا عند هبوط الليل . على انه فى ذلك اليوم صحا بعد ليلة سيئة قضاها ثم ذهب لتوه الى بوردو ليعرض نفسه على الاطباء .

قالت تيريز تخاطب نفسها :

ـ ماكنت راغبة فى شىء عندئذ .. لقد خرجت أسير ساعة على الطريق لأن من واجب الحبلى أن تسير قليلا . لقد تحاشيت المرور وسط الأحراش حتى لا أضطر بسبب مصايد الحمام الى التوقف فى كل لحظة واطلاق الصفارة ثم الانتظار الى أن يسمح الصياد بصرخة عاليه بالمرور . وكثيرا مايحدث أن يأتى الرد على هيئة صرخة طويلة : لقد هبط سرب من الحمام وسط اشجار البلوط ، وهنا يجب الانزواء خوفا من الاصابة . عدت الى المنزل واخذت اتناعس امام نار الصالون او امام نار المطبخ ، تقوم على خدمتى فى ذلك كله العمة كلارا . وما كنت لاعير التفاتا لتلك العانس التى لاتكف عن سرد قصص الخدم والفلاحين . انها تلحق القصة بالقصة ، وكانت قصصها دائما كئيبة أبطالها الفلاحون الذين تعنى بهم وترعاهم فى تفان عجيب ، عجزة قضى عليهم بأن يموتوا جوعا وبأن يعملوا حتى الموت ، وآخرون لا عائل لهم ونساء يقمن بأشق الاعمال .. كانت العمة كلارا تستعيد فى عامية بريئة وفى شىء من السعادة كلمات هؤلاء البؤساء . انها فى الحقيقة لم تكن تحب أحدا الا أنا بينما كنت لا أعيرها ادنى التفات وهى تركع على ركبتيها تفك اربطة حذائى وتخلع جواربى وتدفىء قدمى بين يديها البالیتین .

ـ كان باليون يحضر لتلقى طلباتنا عندما ينوى الذهاب فى اليوم التالى الى سانت كلير ، فكانت العمة كلارا تعد قائمة بالاوامر وتجمع وصفات الدواء لمرضى ارجلوز وتقول له :

ـ تذهب اول ماتذهب الى الصيدلية فقد لايكفى اليوم بطوله لاعداد الادوية .

ـ اول لقاء لى مع جان ... يجب أن أذكر دقائق كل ظرف .. لقد اخترت ان اذهب الى ذلك الكوخ المهجور الذى طالما تناولت فيه الطعام مع آن ، والذى اعلم انها احبت ان تقابل فيه ازيفيدو . لا ، لم يكن فى ذهنى ان احج الى هذا المكان ، ولكن اشجار الصنوبر فى هذا المكان كانت قد بلغت من الارتفاع حدا لا يسمح باقامة مصايد الحمام فيها . فما كنت اخشى أن أفسد على الصيادين عملهم . ان هذا الكوخ لم يكن يصلح للصيد منه ، لان الغابة فيما حوله كانت تسد الافق تماما وقمم الاشجار لا تتيح تلك الفجوات الواسعة التى من خلالها يرقب الصيادون قدوم الاسراب . انى مازلت اذكر أن شمس ذلك اليوم من اكتوبر كانت لاسعة ، وانى كنت اعانى من السير على الطريق الرملى وان الذباب كان يضايقنى . كم كان بطنى ثقيلا .. !

لقد انحصر همى كله فى الاسترخاء على ذلك المقعد المتداعى داخل مصيدة الحمام المهجورة . ماكدت افتح باب الكوخ حتى خرج الى شاب عارى الراس عرفت فيه للوهلة الاولى جان ازيفيدو . ظننت فى اول الامر انى قد افسدت عليه لقاء غراميا ، اذ بدا الاضطراب واضحا على وجهه . لقد حاولت عبثا ان انصرف ولكنه تشبث بى يستبقينى :

ـ كلا يا سيدتى بل ادخلى انك لن تفسدى على شيئا .

ـ دخلت الكوخ بعد الحاح منه فعجبت اذ لم اجد به احدا . لعل الراعية قد افلتت من باب آخر ؟ ولكن ما من عود سمعته ينكسر . لقد عرفنى هو الآخر على التو ، وكان اول اسم جاء على لسانه هو اسم آن دى لاتراف . كنت جالسة وهو واقف كما بدا لى فى الصورة الفوتوغرافية . نظرت من خلال قميصه الى ذلك المكان الذى انفلت فيه الدبوس . حب استطلاع مجرد لاشهوة فيه قط . هل رأيته جميلا ؟ جبهة عريضة قوية وعينان دعجاوان تنبثان عن عنصره وصدغان ممتلئان كثيرا ثم ذلك الشىء الذى طالما قرزنى من الشبان فى تلك السن : بثور على وجهه علامة الدم المتحرك فى عروقه . انه ينضح من جسمه كله ، خصوصا من

Looloo
www.dvd4arab.com

كفيه المبتلتين اللتين اخذ يجففهما فى منديله قبل أن يصافحنى . ولكن نظرته الجميلة كانت كاوية . لطالما احببت ذلك الفم المنفرج دائما عن اسنان حادة ملتهبة . وانا ؟ كيف كان شكلى ؟ عائلى جدا على ماأذكر . لقد اخذت احدثه فى انفة ، واتهمه فى صوت رهيب انه يحدث الاضطراب والفرقة بين افراد عائلة محترمة . انى لاذكر دهشته لهذا الكلام وضحكته الصبيانية عندما قال :

ـ اذن انت تظنين انى سوف اتزوجها ؟ . انت تظنين انى اسعى الى نيل هذا الشرف ؟ .

ارتسم فى ذهنى وانا مندهشة مقدار الهوة الواسعة بين ماتشعر به آن من حب عميق وما يشعر به هذا الشاب من لامبالاة وعدم اكتراث . كان يدافع عن نفسه فى حرارة ، حقا ، لا يمكن مقاومته بحال . هذه الفتاة اللذيذة ، هل حرم على الشباب أن يلعبوا ؟ وما كان اللعب بينهما بريئا الا لان فكرة الزواج كانت منتفية تماما . لقد تظاهر بلا شك بمشاركة آن فى نواياها ، ولذا اسرعت الى مقاطعته عند هذا الحد . ولكنه عاد يقول فى حماس ان آن نفسها سوف تشهد له بانه لم يتخط الحدود ولم يتماد معها الى بعيد ، اما فيما عدا ذلك فهو لايشك بان الآنسة دى لاتراف مدينة له بكل مافى حياتها الكئيبة من ساعات مليئة بالسعادة الحقيقية ، وبكل ما قدن لها أن تلقاه من حب .. ثم قال :

ـ انك تقولين يا سيدتى انها تتألم ولكن هل تعتقدين ان فى حياتها شيئا تتطلع اليه خيرا من هذا الالم ؟ لقد وصل الى علمى صيتك ، واعرف أن هذه الاشياء يمكن ان تقال لك وانك لست كسائر القوم هنا . قبل أن تبحر آن الى ابأس رحلة لها فى ذلك البيت العتيق القائم فى سانت كلير زودتها بذخيرة ثمينة من الاحاسيس ومن الاحلام .. ما يكفى لانقاذها ، ربما ، من اليأس ، وعلى التحقيق ، من التبلد .

لست اذكر الآن هل ضايقنى منه كل هذا الادعاء وكل هذا

التكلف ام انى انعطفت باحساسى اليه . لقد كانت الفاظه فى الحقيقة تنساب بسرعة الى درجة انى لم استطع متابعته فى تفكيره أول الامر . ولكن لم يلبث ذهنى ان تعود على هذه الزلاقة فى القول . قال :

ـ كيف ساغ الاعتقاد انى قد ارغب فى زواج كهذا ؟ . او أن القى بمرساتى على هذه الرمال ؟ أو أن احمل اكتافى فى باريس بفتاة صغيرة ؟ مما لاشك فيه انى سوف احتفظ دائما من آن بصورة محببة ، بل لقد كنت فى اللحظة التى فاجاتنى فيها زيارتك افكر فيها فعلا .. ولكن ، يا سيدتى ، كيف يمكن للانسان منا ان يثبت على حال ؟ . يجب أن تأتينا كل دقيقة من دقائق الحياة بكل ما فيها من لذة وسرور يختلفان عن كل ما سبقهما من لذة وسرور .

ـ هذا النهم الحيوانى الشاب وهذا الذكاء المتجمع فى كائن واحد تبديا لى فى غرابة اجبرتنى على أن استمع له والا اقاطعه . حقا ، لقد شدهت انا ايضا ، وان لم يكلفنى ذلك ولله الحمد ثمنا كبيرا . ولكنى شدهت . وما زلت اذكر ذلك الدبيب المصحوب بزنين الاجراس وبصرخات الرعاة الذى ينبىء على البعد عن اقتراب قطيع الاغنام . قلت للشاب :

لعل من سخف الامور ان نبقى معا هكذا فى ذلك الكوخ . وكنت اود لو انه قال لى من الخير الا نحدث اية حركة حتى ينتهى مرور القطيع اذن لسعدت بهذا الصمت الى جانبه بهذا التواطؤ معه ، فقد اصبحت انا الاخرى راغبة أتمنى ان تأتينى كل دقيقة بما يسعد الحياة . غير ان جان ازيفيدو سارع بغير اعتراض الى فتح باب الكوخ وانحنى بأدب عظيم يؤذن لى بالانصراف . لم يصحبنى الى ارجلوز الا بعد ان تاكد من عدم ممانعتى فى ذلك .. كم كانت قصيرة رحلة العودة على الرغم من أن مرافقى وجد خلالها من الوقت ما يكفى للحديث فى الف موضوع ! . ان له قدرة عجيبة على تجديد ارائى فى كثير من تلك الموضوعات التى كنت اظننى ملمة

Looloo
www.dvd4arab.com

بها بعض الشيء . ففي المسألة الدينية مثلا شرعت اعيد على مسمعه الأفكار التي طالما رددتها امام افراد الاسرة ولكنه قاطعني قائلا :

ـ حقا .. بلا شك .. ولكن الأمر أعقد من هذا كثيرا .

لقد كان يضفي على الحديث وضوحا بدا لي رائعا . ولكن هل كان كلامه رائعا حقا ؟ انى اظنني منكرة ذلك اليوم . لقد قال انه طالما اعتقد ان ما من شيء يهم غير السعي الى الله والبحث عن سبيله . اما ميوله فهي .

ـ الاسفار وركوب البحر والفرار من اولئك الذين يعتقدون انهم قد وصلوا الى البر فسكنوا عن الحركة واقاموا لهم مأوى ينامون فيها . هؤلاء اود لو فررت منهم فرارى من الموت ، فلطالما احتقرتهم احتقارا شديدا .

سألني هل قرات « حياة الأب دى فوكو » الذى ألفه رينيه بازان .. واذ تظاهرت بالضحك استهزاء أكد لي ان هذا الكتاب قد اقض مضجعه :

ـ ان الحياة الخطيرة بمعناها العميق لا تعنى فقط البحث عن سبيل الله ، وانما ايضا العثور على هذا السبيل ثم البقاء في نطاقه بعد استكشافه .

كانت هذه كلماته ، ثم اخذ بعدها يصف لي المغامرة الكبرى التي يسلكها المتصوفون ويشكو من أن طبعه الذى جبل عليه لايسمح له بمحاولة سلوكها . ثم قال انه بقدر ما تعود اليه ذاكرته لا يعتقد انه كان في يوم من الأيام طاهرا .

« بل هذا الفجور وكل هذه السهولة في الكشف عن مكنون النفس .. ما اقسى ما ابعدني ذلك عن الحياء الريفي الذى عهدته، وعن التكتم الذى يخفي كل منا هنا في طياته شئونه الخاصة !... ان الأحاديث في سانت كلير لا تدور الا حول ما هو ظاهر ، اما ما في القلوب فلا يكشف عنه احد . ما الذى اعرفه في الواقع عن برنار ؟ الا توجد فيه اشياء كثيرة جدا غير صورته هذه المشوهة التي اكتفي بها كلما عدت الى تصوره ؟ . تكلم جان كثيرا بينما ظللت

انا صامتة . لم تكن شفتاى تنطقان بغير العبارات الدارجة التي اعتدنا على ترديدها في مناقشاتنا العائلية . وكما ان جميع العربات هنا « على قدر الطريق » اى ان عجلاتها اعدت بالاتساع اللازم لتجرى في الأخاديد والحفر المرتسمة في الطريق ، فان أفكارى كانت حتى ذلك اليوم « على قدر الطريق » هي الأخرى بالنسبة لآراء ابي واهل زوجي . سار جان ازيفيدو عارى الرأس . ما زلت اذكر قميصه المنفرج عن صدر كصدر الطفل يعلوه عنق ممتلىء قوى . هل وقعت تحت تأثير صفاته البدنية ؟ لا ، حقا لا . ولكنه كان اول رجل التقى به يضع حياة الفكر في المكان الأول من الاعتبار . ان اساتذته واصدقاءه في باريس ممن كان يذكر لي بلا انقطاع آراءهم ومؤلفاتهم ، ليس من بينهم من يسمح لي باعتباره نابغة من النوابغ. قال لي انه واحد من نخبة كبرى من الناس « هم الذين يعيشون حقا » . ذكر لي أسماء معتقدا انني لا يمكن ان اكون جاهلة بهم ، وكنت اتظاهر بأني لا اسمع هذه الأسماء للمرة الأولى .

« عندما ظهرت حقول ارجلوز عند منعطف الطريق صرخت قائلة :

ـ هكذا ! بهذه السرعة !.. الدخان المتصاعد من الحشائش المحترقة يتدافع على مقربة من سطح الأرض التي اعطت حصادها من الشوفان . ومن فجوة وسط التلال ينساب قطيع من الغنم كانه سيل من اللبن العكر وقد بدا افراده كأنما هم يأكلون الرمال. كان يجب على جان ان يخترق الحقل ليعود الى فيلميجا فقلت له :

ـ دعني أصاحبك . هذه المسائل كلها تشوقني ...

ولكننا لم نجد شيئا نتحدث عنه . سيقان الشوفان المحشوشة تخترق حذائي وتؤلمني . كنت اشعر انه يود الانفراد بنفسه ليتابع، بلا شك ، في حرية فكرة طرأت له . قلت له اننا لم نتكلم بعد عن آن ، فاكد لي اننا لسنا احرارا في اختيار ما تدور حوله احاديثنا ؛ بل ولا ما تجول به تأملاتنا . ثم اضاف :

ـ والا ، كان علينا ان نستسلم لقواعد السلوك التي اخترعها

Looloo
www.dvd4arab.com

المتصوفون ... ان الناس الذين هم على شاكلتنا انما نتساقون دائما للتيارات ويسيرون دائما مع الميول ...

انه يرجع كل شيء الى قراءاته فى ذلك الوقت . تواعدنا على اللقاء لنحدد فيما يتعلق بآن خطة السلوك الذى يسلكه . كان يتكلم وهو مشتت التفكير ومن غير ان يجيب عن سؤال وجهته اليه انحنى الى الأرض وفى حركة صبيانية أشار الى ساق نبات اقترب به من أنفه ومن شفتيه .

- ٧ -

كان برنار واقفا على عتبة الباب ينتظر عودة تيريز . وما ان رأى ثوبها فى عتمة المساء حتى صاح :

— ليس بى شيء ... ليس بى شيء ... هل تعتقدين انى ، وانا على ما ترين من قوة وعافية ، مصاب بالهزال ؟ انه لامر لا يصدق ، ولكنه مع ذلك هو الواقع . يجب الا تخدعنا المظاهر .. سأتبع علاجا ... علاج (فاولر) الذى اساسه الزرنيخ . الأمر المهم هو أن أستعيد شهيتى للأكل .

تذكرت تيريز انها فى اول الأمر لم تهتم لما قاله برنار . ان كل ما يجيئها منه لا يصيبها الا قليلا كأنما هو ضربة موجهة اليها من بعد كبير . لم تكن تصغى لما يقول فقد كان جسمها وروحها كلاهما متجهين الى عالم آخر ، عالم تعيش فيه الكائنات النهمة التى لا تتمنى الا المعرفة والفهم والتى تريد — كما قال جان فى اقتناعه العميق — ان تتحول الى ما هى عليه .

وعندما تحدثت على المائدة عن مقابلتها مع جان صاح بها برنار :

— لماذا لم تكلمينى عن ذلك ؟ يالك من امراة عجيبة ! هيه ! ماذا قررتما ؟

أخذت تيريز تشرح الخطة التى تتبع :

— جان ازيفيدو قبل ان يكتب لآن رسالة رقيقة يبدد فيها آمالها . ثار برنار عندما اخبرته تيريز ان هذا الشاب لا يرغب ابدا

فى هذا الزواج . كيف ؟ هل يعقل الا يرضى واحد من آل ازيفيدو بالزواج من آن دى لاترياف .

— لقد جننت يا عزيزتى ..! انه انما يعلم فقط ان هذا امر مستحيل . هؤلاء القوم لا يخاطرون بأنفسهم عندما يكون الفشل مؤكدا لهم . ما زلت نمرة يا صغيرتى ...

حرص برنار على الا يوقد المصباح حتى لا يتكاثر الناموس ولذلك لم ير النظرة التى وجهتها له تيريز . أعلن انه قد استعاد فعلا شهيته للطعام وان طبيب بوردو قد رد اليه الحياة فعلا .

* * *

— هل رأيت جان ازيفيدو بعد ذلك مرات عديدة ؟ لقد غادر ارجلوز فى منتصف اكتوبر ... ربما قمنا معا بخمس او ست نزهات .. لا أقف منها الا عند تلك التى أنهمكنا خلالها معا فى تحرير الرسالة الى آن . لقد كان الشاب الساذج يتوقف عند عبارات يعتقد أن فيها العزاء كله ، بينما لم أكن أرى فيها ، من غير أن اذكر له شيئا ، الا القسوة والفظاعة . على أن غدواتنا وروحاتنا الأخيرة تختلط معا فى ذكرى وحيدة . كان جان ازيفيدو يصف لى باريس وصداقاته فيها فكنت اتخيل ذلك كله كمملكة واسعة يسودها قانون عام يقضى بان يتحول كل انسان الى ما هو عليه . انك هنا مقضى عليك بان تعيشى فى الكذب حتى الموت . هل كان كلامه هذا عن قصد ؟ انى ما كنت لأستطيع سماع عبارته هذه من غير ان اشعر بالاختناق . قال لى :

— انظرى الى هذه الصفحة الواسعة الرتيبة من الجمد وقد حبست فى صلبها كل هذه النفوس هنا . قد تحدث أحيانا فجوة تطل من خلالها المياه السوداء . لقد تخبط انسان واضطرب ثم اختفى وعادت القشرة السميكة تلتئم اطرافها من جديد . ذلك ان كل انسان هنا وفى كل مكان آخر يولد ومعه قانونه الخاص . هنا وفى كل مكان آخر القدر مقدور بصاحبه . ومع ذلك يجب على الجميع ان يستسلموا لقضاء واحد كئيب . قد يبدى البعض مقاومة ، معاندة لهذا القضاء فتنشأ من ذلك تلك المآسى التى تخفيها الدفاتر فى طى الكتمان . انهم يقولون هنا :

Looloo
www.dvd4arab.com

. يجب بسط ستار الصمت ...

ـ لقد اجبته على الفور :

ـ حقا ، لقد سعيت احيانا الى التعرف على شيء من اخبار ذلك العم الاعلى أو تلك الجدة البعيدة ممن اختفت صورهم الفوتوغرافية من كل ما لدينا من مجموعات ، فما فزت من ذلك ابدا بطائل ، اللهم الا مرة واحدة حيث عثرت على هذا الاعتراف الذى يقول :

ـ لقد اختفى ... لقد ازالوه من الوجود ...

ـ هل كان جان ازيفيدو يخشى على من هذا القدر المحتوم ؟ لقد اكد لى انه ما كان ليفكر ابدا فى محادثة آن عن هذه الاشياء ، افهى على الرغم من شهوتها الجامحة لا تعدو أن تكون نفسا بريئة لاتكاد تعرف الثورة والعناد ، ومآلها عما قريب الى العبودية والخضوع .. اما أنت فانى اتحسس فى كل كلمة تقولينها حاجة الجائع الظامىء الى الصدق والصراحة .

هل يجب على ان انقل هذه الاحاديث نقلا كاملا الى برنار ؟ من الجنون أن أتوقع منه فهما صحيحا لذلك كله . على انه يجب أن يعرف انى لم استسلم بغير مقاومة وكفاح . اذكر انى عارضت الشاب بقولى انه يكسو بالعبارات البارعة احط ميول الانحدار واحقرها . بل لقد استعنت فى ذلك بما كنت اذكره من القراءات الاخلاقية التى كانوا يفرضونها علينا فى المدرسة الثانوية .

قلت له :

ـ ما معنى ان يتحول الانسان الى ما هو عليه ؟ اننا لا نصل الا الى مستوى ما نخلقه بانفسنا لانفسنا .

لا حاجة الى مزيد من الشرح هنا وربما كان الشرح واجبا عند مقابلة برنار .

كان ازيفيدو ينكر ان هناك سقوطا اسوأ من تنكر الانسان لذاته . برغم انه ما من بطل ولا من قديس الا ودار ولف حول نفسه اكثر من مرة ، الا وبدأ اولا بالوصول الى اقصى حدود نفسه. كان يكرر قوله :

ـ يجب على المرء أن يتجاوز طاقة نفسه ليجد السبيل الى الله . اما قبول المرء لنفسه على علاتها فهو امر يقضى على الاخيار منا بأن يواجهوا بعضهم بعضا فى قتال يخوضونه مكشوفى الوجوه غير متخذين الى الخدعة سبيلا . لذلك كثيرا ما ينتهى الأمر بهؤلاء المتحررين الى اعتناق أضيق الديانات رحابا .

ـ من الخير الا اناقش مع برنار استقامة هذا الاتجاه الاخلاقى وصحة فحواه . بل ومن الخير ايضا ان اسلم له بان هذه كلها ان هى الا خزعبلات وسفسطة لا طائل تحتها . ولكن الشيء الذى يجب ان يفهمه وان يجهد عقله فى فهمه هو ، الى اى مدى يمكن لامرأة من فصيلتى ان تتأثر بهذه الآراء .

كان برنار يخلع حذاءه فى جانب المطبخ القريب وهو يتحدث باللهجة العامية عن نتيجة صيد اليوم . الحمامات الحبيسة تنتفض داخل الكيس الملقى على المنضدة . كان برنار يأكل ببطء وهو سعيد بشهيته التى عادت اليه ويعد بعناية قطرات دواء (الفاولر) المتساقطة .

كان لا يكف عن ترديد قوله :

ـ هذه هى الصحة والعافية ..

هناك قدر كبير من النار يلتهب فى المدفأة وما كان عليه بعد الانتهاء من الطعام الا ان يدير مقعده ليواجه الحرارة بقدميه المنتعلتين بالوبر . اغلق عينيه على الجريدة التى كان يقرأ فيها وكنت اسمع أحيانا شخيره واحيانا اخرى لا اسمع له انفاسا .. باليونت تنتقل بعض الوقت فى المطبخ ثم تأتى بالشموع ، وبعد ذلك يسود الصمت ... صمت ارجلوز الرهيب . لا يستطيع من لم يعرف منطقة اللاند القضية ان يتصور هذا الصمت . انه يحيط بالبيت كما لو كان جدارا كثيفا استند الى الفابة التى لا يتنفس فيها مخلوق ، اللهم الا تلك البوم المولولة التى تذكرنا فى جنح الليل البهيم بالانات المكبوتة فى صدورنا .

ـ لم أشعر كل الشعور بهذا الصمت الثقيل الا بعد رحيل ازيفيدو . فطالما كنت اعرف ان الصباح سيأتينى بجان مرة اخرى ،

Looloo
www.dvd4arab.com

كنت ارى الظلمات المتراكمة في الخارج وقد زالت عنها الرهبة وفقدت كل ما فيها من اخطار . كان رقاده على القرب يملأ الكون حولى ويبدد الليل الكثيف . ولكن منذ ان غادر ارجلوز على اثر لقائنا الأخير الذى واعدنى فيه على اللقاء بعد عام وهو يعرب عن امله فى ان يرانى بعد تلك المدة وقد اصبحت قادرة على انقاذ نفسى ...

ـ ما زلت حتى اليوم اجهل هل كان كلامه هذا عفوا ، أو انه كان يرمى به الى غرض فى نفسه ، وانى لأميل الى الاعتقاد ان هذا الباريسى لم يكن يطيق الصمت ، صمت ارجلوز ، وانه انما كان يعشق فى مستمعه الوحيد ـ منذ ان غادرنى وانا اشعر بنفسى أسير فى نفق لا نهاية له واخوض فى ظلام متكاثف متزايد ، وكثيرا ما تساءلت ، هل قدر لى ان أصل الى الهواء الطلق قبل ان يحل بى الاختناق ؟ الى ان اضع حملى فى يناير لن يحدث شىء جديد ...

***

هنا ترددت تيريز . انها تحاول ان تبتعد بفكرها عما حدث فى ذلك البيت فى ارجلوز بعد سفر جان بيومين . قالت لنفسها :

ـ لا ، لا ، لا علاقة لذلك بما يجب على ان أشرحه لبرنار بعد حين . ليس لدى وقت اضيعه فى المسالك التى لا تؤدى الى شىء

ولكن الفكر عنيد يأبى الا ان يمرح حيث شاء . لن تخرج تيريز من ذاكرتها تلك الليلة من شهر اكتوبر . فى الدور الأعلى كان برنار يخلع ملابسه بينما كانت تيريز تنتظر الى ان تهمد الشعلة الملتهبة فى المدفأة قبل ان تلحق به . انها سعيدة اذ اتيحت لها لحظة تبقى فيها بمفردها وتفكر : ماذا يفعل جان ازيفيدو فى تلك الساعة ؟ لعله يحتسى الخمر فى تلك الحانة الصغيرة التى طالما حدثها عنها ... أم لعله ، والليلة على ما هى عليه من جمال ، يذرع الطرقات فى سيارة ومعه صديق وسط غابة بولونيا المقفرة ... ربما كان يعمل على منضدته بينما باريس تعج وتصخب على البعد ... الصمت ... انه هو الذى يخلقه لنفسه ، هو الذى يستخلصه من وسط ضجيج العالم ... لم يكن مفروضا عليه كذلك الصمت الذى

تئن منه تيريز وتختنق به . هذا الصمت ، انه من خلقه هو ، ولا يمتد الى أبعد من ضوء المصباح ولا الى أبعد من الارفف المحملة بالكتب . هكذا كانت تيريز تفكر ، واذا بالكلب ينبح ثم يغمغم ، واذا بصوت متهالك يأتى من الردهة ويدخل الهدوء الى قلبها : آن دى لاتراف فتحت الباب . لقد عادت الى سانت كلير راجلة فى الليل ، وقد اثقلت حذاءها أحمال من الطين . كانت عيناها تلمعان فى وجهها الشاحب كان السنين الطوال قد تركت عليه آثارها . القت بقبعتها على أحد المقاعد وسألت :

ـ اين هو ؟

ظن تيريز وبرنار بعد كتابة الرسالة ان الأمر قد انتهى . ولم يدر بخلدهما ان آن قد تصر على رأيها ولا ترجع عنه ، كما لو كان الانسان يلين أمام العقل والتعقيل عندما يتعلق الأمر بحياته نفسها . لقد استطاعت الافلات من رقابة أمها والقت بنفسها فى احد القطارات ، وعلى الطريق المظلم المؤدى الى ارجلوز استضاءت بانعكاسات السماء الصافية المتسللة من بين قمم الاشجار .

ـ ان كل ما يهمها هو ان تراه ثانية . فاذا ما راته سيعود لها سلطانها عليه . يجب أن تراه .

كم من مرة سقطت اعياء فى الطريق والتوت قدمها فى الاخاديد، فقد كانت تتعجل الوصول الى ارجلوز . هاهى ذى تيريز تخبرها ان جان قد رحل ، انه الآن فى باريس . آن اشارت برأسها علامة النفى . انها لا تصدق . ان بها حاجة الا تصدق حتى لا تنهار اعياء ويأسا :

ـ انك تكذبين كما كذبت دائما .

واذ اخذت تيريز تعترض محتجة قالت آن :

ـ آه ، لقد توفر لك انت روح الاسرة ! انك تتظاهرين بالتحرر واتساع الافق ، ولكن منذ زواجك اصبحت فجأة من نساء العائلة .. نعم ، نعم ، مفهوم ... لقد ظننت انك تصنعين بى خيرا ، لقد كنت تخونيننى لتنقذينى ... انى اعفيك من الشرح .

Looloo
www.dvd4arab.com

أسرعت تفتح الباب فسألتها تيريز الى أين هى ذاهبة ؟

ـ الى فلميجا ، فى بيته ..

ـ اكرر لك القول أنه رحل منذ يومين .

ـ لا اصدقك .

خرجت آن واسرعت تيريز توقد القنديل المعلق فى الدهليز ولحقت بها .

ـ انك تضربين على غير هدى يا صغيرتى آن . هـذا طـريق بيورج كما تعلمين . فلميجا فى هذا الاتجاه .

اخترقتا الضباب المتصاعد من الحقول . استيقظت الكلاب هاهى ذى شجيرات البلوط فى فلميجا . هذا هو بيته انه ليس راقدا وانما هو ميت . دارت آن حول هذا القبر الخالى وطرقت الباب بكلتا قبضتيها . وقفت تيريز لا تتحرك وقد وضعت القنديل على العشب . رات شبح صديقتها الخفيف يلتصق بكل نافذة من نوافذ الدور الارضى . لاشك ان آن تكرر فى تلك اللحظات اسما من غير ان تصرخ به ، لعلمها ان الصراخ لا يجدى فتيلا . حجبها البيت لحظة ثم عادت الى الظهور وارتمت على عتبة الباب عاقدة ذراعيها حول ركبتيها ، وقد اخفت بينهما وجهها . رفعتها تيريز وجذبتها خلفها . اخذت آن تكرر وهى تتعثر : « سأذهب غدا صباحا الى باريس . ليست باريس كبيرة الى هذا الحد . ساعثر عليـه فى باريس ... »

قالت هذا بصوت الطفلة التى كفت عن المقاومة واسلمت امرها الى الاقدار .

كان برنار ، وقد ايقظته اصواتهما ، ينتظرهما فى الصالون . ان تيريز تخطىء اذ طردت من ذاكرتها ما حدث فى تلك الليلة بين الاخ واخته . هذا الرجل القادر على القبض بقوة على يد هـذه الصبية المنهوكة ، القادر على جذبها الى داخل احدى حجـرات الدور العلوى والقادر على اغلاق الباب عليها وحبسها ، هـذا

الرجل هو زوجك يا تيريز ، برنار الذى سيصبح بعد سـاعتين القاضى الذى يحكم عليك . ان روح العائلة هو الذى يقوده وينقذه من كل تردد . هو يعرف دائما وفى كل الظروف ما يلزم عمله من اجل مصلحة العائلة . انك فى غمرة القلق والتوجس تعدين دفاعا طويلا ، ولكن الرجال الذين لا مبـادىء لهم هم وحـدهم الذين يستطيعون ان ينزلوا عن رايهم امام الاسباب التى يبديها الآخرون . ان برنار يهزأ بالحجج التى تبدينها ، انه يقول : انى اعلم بما يجب على عمله ..

انه يعرف دائما ما يجب عليه عمله . واذا ما تردد فى ذلك قال:

ـ لقد تحدثنا عن ذلك فى العائلة ورأينا ان ...

كيف يسوغ لك ان تشكى فى انه قد اعد قراره فعلا ؟ لقـد تقرر مصيرك الى الابد . خير لك اذن ان تنامى .

ـ ٨ ـ

بعد ان أعاد آل دى لاتراف آن مهزومة مستسلمة الى سانت كلير لم تفادر تيريز ارجلوز حتى قرب موعـد وضـعها . عرفت الصمت الحقيقى هناك فى تلك الليالى التى لا نهاية لها من ليـالى نوفمبر . ارسلت رسالة الى جان ازيفيدو ولم تتلق عنها ردا . لاشك انه راى ان تلك القروية لا تساوى ما قد يلقاه فى مكاتبتها من ملل . انها امراة حامل والمراة الحـامل لا توحى بشىء من الذكريات الجميلة . لعله ، على البعد ، قد حكم على تيريز بالتفاهة هذا الغبى الذى ربما استوقفته مشكلات المواقف الكاذبة . ولكن ما الذى يستطيع أن يفهمه هذا الغر من تلك البساطة الخداعة ومن تلك النظرة المباشرة ، ومن تلك الحركات التى لم يخالطها قط تردد . انه ، فى الحق ، كان يعتقد انها كالصغيرة آن ، قادرة على ان تأخذ عليه كلمته وان تترك كل شىء لتتبعه . ان جان ازيفيدو يتحاشى النساء اللاتى يسارعن الى القاء أسلحتهن لكى يتمكن المهاجم من رفع الحصار بغير عناء . انه ماكان يخشى من النصر الا ثمرته . على ان تيريز كانت تجهد نفسها لتعيش فى دنيا هذا الشاب ، غير ان الكتب التى طالما حدثها عنها جان فى اعجاب والتى احضرتها من بوردو بدت لها غير مفهومة . ما اقسى الفضاء الذى تعيش فيـه

Looloo
www.dvd4arab.com

تيريز ! ... لا جدوى من ان تنكب على اعداد الاقمطة اللازمة لمولودها ، فقد كانت مدام دى لاتراف تقول ، انها لم تخلق لمثل هذا العمل . كثيرات هن النساء اللواتى يمتن فى الريف فى عملية الوضع . ولطالما ابكت تيريز العمة كلارا ، وهى تؤكد لها انها ستنتهى الى ما انتهت اليه امها من قبل ، وانها لن تفلت من الموت. كانت تضيف الى ذلك انها لا يهمها ان تموت . كذب . انها لم ترغب قط فى الحياة قدر رغبتها فيها فى ذلك الوقت كما ان برنار لم يظهر نحوها قط رعاية وعناية قدر ما يظهره لها الآن . « ان عنايته لم تكن لى انا وانما لما كنت احمله بين احشائى » كثيرا ما كان يقول لها بصوته الاجش الكئيب :

ـ كلى من هذا الصنف ... لا تأكلى من السمك ... لقد مشيت كثيرا اليوم .. لم تكن نصائحه هذه لتؤثر فى الا بقدر ما يؤثر اللوم فى المرضعة الغريبة التى يعيبون عليها طبيعة لبنها . ان ما يحترمه آل لاتراف فى شخصى هو الوعاء المقدس ، ذلك المستقر الذى تستكن فيه ذريتهم . لست أشك انهم ، اذا لزم الامر ، يضحون بى من اجل هذا الجنين . لم اكن فى نظر الاسرة الا الفرع ولم يكن يهم غير الثمرة المعلقة باحشائى .

***

كان عليها ان تعيش حتى نهاية ديسمبر فى ظلام . الم تكف اشجار الصنوبر التى لا عدد لها تقيم حول البيت المعتم سياجات من أفرعها الكثيرة ، حتى يأتى المطر المنهمر فيضيف الى هذه السياجات سياجات جديدة . وعندما اوشك الطريق المؤدى الى سانت كلير ان يصبح غير صالح للسير فيه نقلونى الى القرية فى البيت الآخر هناك الذى لا يقل ظلاما عن بيت ارجلوز الا قليلا . اشجار الحور العتيقة المنتصبة وسط الميدان تتنازع مع رياح الشتاء وريقاتها الاخيرة . لم تكن العمة كلارا لتستطيع الحياة فى غير ارجلوز ، لذلك كثيرا ماكانت تقطع الطريق الى فى الطقس العاصف على عربتها الصغيرة التى ينبت هى الاخرى « على قدر الطريق » . كانت تحضر لى تلك الحلوى التى طالما احببتها وانا بنت صغيرة ، والتى كانت تظن انى مازلت احبها الآن : تلك الكرات

من دقيق الشوفان المعجون بالعسل ، وتلك الفطائر التى تجيد صنعها . لم اكن أرى آن الا فى أوقات الطعام ولم تكن هى توجه الى الحديث . يبدو انها استسلمت وكفت عن المقاومة ، فقدت بذلك حيويتها جميعا ، كان شعرها المشدود الى الخلف يكشف عن اذنيها القبيحتين الشاحبتين . لم يكن احد يذكر اسم ابن ديجلهيم ، غير ان مدام دى لاتراف قالت ان ابنتها وان لم تبد موافقتها بعد لم تكن قد اعلنت رفضها تماما . ما اصدق الحكم الذى اصدره عنها جان ! لقد كفى قليل من الزمن لوضع اللجم حول عنقها ولحملها على السير كما يشاءون . برنار لم يكن فى خير حالاته ،لأنه عاد الى احتساء الشراب قبل تناول الطعام . ما هى الاحاديث التى كان هؤلاء القوم يتبادلونها من حولى ؟ انهم يتحدثون كثيرا عن قسيس القرية . فقد كنا ، كما اذكر ، نقطن فى مواجهة الكنيسة . لقد تساءلوا مثلا لماذا اجتاز الميدان اربع مرات فى ذلك اليوم ، وكان فى كل مرة يعود من طريق غير التى سلكها من قبل .

وجهت تيريز ، بناء على ما سمعته من جان ازيفيدو ، اهتماما خاصا الى هذا القسيس الذى مازال فى ريعان الشباب ، والذى لم يقم لنفسه اتصالات بأبناء ضيعته ، فراوا فيه لذلك رجلا متحجرا متعاليا : « ليس هذا هو الصنف الذى يصلح هنا ... » . فى خلال زياراته القليلة لآل لاتراف لاحظت تيريز صدغيه الابيضين وجبهته العالية ـ أليس له من صديق ؟ كيف يقضى امسياته ؟ ما الذى حمله على اختيار هذا النوع من الحياة ؟ قالت مدام دى لاتراف :

ـ انه رجل مستقيم يؤدى العبادات كل مساء ، ولكن يعوزه الاقناع . انى لا ارى فيه ما يقال عنه ، الرجل التقى الورع . ثم اوجه النشاط انه يهملها تماما .

عابت عليه الفاء فرقة الموسيقى المحلية ، كما ان الاهالى لا يكفون عن الشكوى من انه لا يصاحب التلاميذ الى ملعب الكرة .

Looloo
www.dvd4arab.com

انه لشيء جميل من القسيس الا يرفع انفه عن الكتب ؟ ولكن الرعية سرعان ما تضيع » اخذت تيريز تتردد على الكنيسة لتستمع الى عظاته :

— لقد اقبلت يا صغيرتى فى الوقت الذى تبيح لك فيه حالتك الامتناع عن الحضور .

لقد كانت الخطب التى يلقيها هذا القسيس حول العقيدة او الاخلاق ذات طابع عام ، ولكن ما كان يعنى تيريز منها هو نبرة الصوت ونبل الاشارة . ولكن بعضا من كلماته كان بها معنى عميق لعله يستطيع هو ان يجد الحل لهذا العالم المضطرب الذى يعتمل فى نفسها . انه يختلف عن الآخرين اذا اضاف الى الوحدة الداخلية التى يعيش فيها هذا الفضاء الذى تخلقه المسوح حول من يرتديها ، اى راحة يستنبعها هذا الرجل من طقوسه اليومية ؟ لقد ودت تيريز لو استطاعت ان تحضر القداس الذى يقيمه فى وسط الاسبوع ، حيث تخلو الكنيسة الا من احد الشمامسة وينكفىء هو على كسرة من الخبز يتمتم فوقها ببعض الكلمات . ولكن عملا مثل هذا قد يبدو غريبا فى نظر العائلة وفى نظر اهل القرية جميعا اذ يتهمونها عندئذ بالتحول الى طريق الدين .

ايا كانت الآلات التى قاستها تيريز فى هذه الفترة ، فان تبرمها

***

ايا كانت الالام التى قاستها تيريز فى هذه الفترة فان تبرمها بالحياة لم يبدا الا فى اليوم التالى لوضعها انها لم تعد تطيق الحياة حقا . لم تكن تبدى من ذلك شيئا فى مظهرها ، فلا عراك بينها وبين برنار وكان احترامها لاهل زوجها يفوق احترام زوجها لهم هنا كانت تكمن المأساة ، اذ لا يوجد للخصام سبب ، وما كان من المتوقع ان يحدث السبب الذى يمنع هذا الهدوء والترتيب من ان يستمر هكذا حتى الموت . لم تكن تيريز ترى برنار بل ولا اهل زوجها . لم تكن كلماتهم تصل اليها ولم تكن بها حاجة لان ترد عليهم . هل كان تفكيرهم متجانسا ؟ وهل كانت لغتهم واحدة ؟

انهم يطلقون على الكلمات الهامة معانى تختلف عما تعنيه هى . اذا ما صدرت عنها صرخة صادقة اصطدمت لدى العائلة بجمود مثير ، فقد اتفق الجميع على القول ، انها تهوى الاندفاع فى نوبات الغضب .. كانت مدام دى لاتراف تقول : انى اتظاهر بالا اسمع شيئا فاذا تمادت فى عدم الاكتراث قالت :

انها تعلم ان شيئا من ذلك لا يؤثر فينا ...

ولكن مدام دى لاتراف لم تكن تطيق من تيريز تظاهرها بالضيق لما يذكره الناس عن الشبه بينها وبين الصغيرة مارى . ان ملاحظات الناس حول هذا الشبه كانت تثير فى نفسها من الثورات ما لا تستطيع فى كثير من الاحيان اخفاءه . كانت تقول :

— هذه الطفلة لا تشبهنى فى شىء . انظروا الى هذه البشرة السمراء والى هاتين العينين السوداوين وانظروا الى صدرى ، لقد كنت انا طفلة شقراء .

لم تكن تريد بينها وبين مارى شبها . لم تكن ترغب فى ان يوجد لها مع هذا الكائن الذى انفصل عنها شىء مشترك . بدات الاقاويل تسرى بان عاطفة الامومة معدومة فيها ، ولكن مدام دى لاتراف كانت تؤكد انها انما تحب ابنتها على طريقتها الخاصة :

— حقا يجب الا تطالبها بالاشراف على استحمامها او تغيير فراشها ، فهذا من الامور التى لا تطيقها ولكنى رايتها تقضى الامسيات الطويلة الى جانب المهد جالسة ، وقد امتنعت عن التدخين تنظر الى الطفلة النائمة .. على ان لدينا خادمة امينة ... ثم هناك آن ... يالها من فتاة ... اقسم لكم انها ستصبح يوما اما مثالية صغيرة ...

منذ ان اخذت الطفلة تطلق انفاسها فى المنزل عادت آن الى الحياة ، ان المهد يجتذب اليه النساء دائما .. ولكن آن اكثر من غيرها كانت تتناول الطفلة وفى قلبها سرور عميق . ولكى تجد لنفسها حرية الوصول الى الصغيرة ، عادت الى مصالحة تيريز من غير ان تبقى على شىء من مودتهما القديمة فيما عدا المجاملات العائلية . واكثر ما كانت تخشاه الشابة من تيريز غيرتها كأم .

— ان الطفلة تعرفنى اكثر مما تعرف امها . انها تضحك كلما

Looloo
www.dvd4arab.com

تراني . في يوم كنت احملها بين ذراعي واذا بها تصرخ صراخا عاليا هندما جاءت تبريز لتأخذها . انها تفضلني على من سواي حتى لأشعر بالحرج أحيانا ...

لم يكن بآن حاجة لاى شعور بالحرج ، فقد كانت في هذه المرحلة من حياتها بعيدة عن ابنتها بعدها عن كل شيء آخر ، كانت ترى الناس والأشياء وجسمها ذاته وعقلها نفسه سرابا وهباء يهيم بعيدا عنها . كان برنار وحده هو الذي يشعر وسط هذا الفراغ بحقيقة الوجود المخيف . جسمه الضخم وصوته الانفي وأوامره الصارمة ، كل شيء فيه ينبيء عن الرضا . لم يكن يفهم ما معنى الخروج من العالم . كيف يتم هذا الخروج ؟ والى اين تذهب ؟ يشاطر الحر بدات تثير تبريز . ما من شيء ينبهها الى ما هي مقدمة عليه من عمل . ماذا جرى في تلك السنة ؟ انها لا تذكر من ذلك شيئا ، لا حوادث ، لا عراك . كل ما تذكره انها شعرت نحو زوجها في يوم عيد الغفران بكراهية لم تشعر بمثلها من قبل .

وقفت خلف النافذة تنظر الى الموكب يمر امامها . يكاد برنار ان يكون الرجل الوحيد السائر خلف مظلة الاحتفال . في لحظات افقرت فيها القرية ، كما لو كان اسدا وليس حملا ، ذلك الذي اطلقوه في الطرقات . كان الناس ينزوون في الاركان حتى لايضطروا الى خلع قبعاتهم او الى الركوع عند مرور الموكب . بعد زوال الخطر تعود الأبواب فتفتح الواحد بعد الآخر . نظرت تبريز الى القسيس وهو يسير مغمض العينين رافعا بين يديه هذا الشيء الغريب . كانت شفتاه تتحركان . مع من يتكلم وهو في هذا الحزن العميق ؟ بعده مباشرة يجيء برنار ، انه — كما يقول — يؤدي واجبه .

***

تتالت الاسابيع من غير ان تسقط قطرة واحدة من المطر وكان برنار يعيش في رعب خوفا من الحرائق ، وقد عاودته من جديد علة القلب . لقد احترقت خمسمائة هكتار في ناحية لوشا .

— لو ان الريح هبت شمالا لضاعت كل اشجار الصنوبر في بالميزاك .

لم تكن تبريز تدري ما الذي تنتظره من تلك السماء التي لا ترحم . الن يسقط المطر ابدا ؟ قد يأتي يوم تضطرم فيه الغابة من كل جانب ، ولن تسلم القرية نفسها من الحريق . لماذا لا تندلع الحرائق في قرى اللاند ؟ أليس من الظلم ان تختار النيران دائما اشجار الصنوبر طعاما لها ، ولا تختار الرجال ابدا ؟ النقاش لا ينتهي بين افراد العائلة حول اسباب الكارثة . هل هي سيجارة ملقاه ؟ ام هو الاهمال والتراخي ؟ لقد رات تبريز في منامها انها استيقظت ليلة وخرجت من الدار وتوجهت الى اكثر اجزاء الغابة ازدحاما بالهشيم والقت سيجارتها وانتظرت الى ان ملأ الدخان الكثيف السماء في الفجر .. ولكنها طردت هذا الخاطر من ذهنها فهي تحمل في دمائها حبا عميقا لأشجار الصنوبر . ان مايملأ قلبها من كره ليس موجها الى الأشجار .

هاهي ذي في اللحظة التي تواجه فيها الفعلة التي اقترفتها . اي تعليل لها تقدمه الى برنار ؟ ليس امامها الا ان تعيد الى ذاكرته ، نقطة بعد نقطة ، كيف حدث الامر . كان ذلك يوم الحريق الكبير الذي اندلع في مانو . الرجال يدخلون الى غرفة الطعام حيث كانت الاسرة تتناول الافطار على عجل . بعضهم يؤكد ان النار تبدو بعيدة جدا عن سانت كلير والبعض الآخر يصر على ضرورة دق أجراس الكنائس ايذانا بالخطر . عصارة الاشجار المحترقة تملأ جو ذلك اليوم الملتهب . بينما بدت عين الشمس وكان عليها غمامة من الوسخ . تذكرت تبريز ما كان عليه برنار في تلك اللحظة . لقد كان مستديرا براسه يستمع الى البيانات التي ينقلها اليه باليون ، بينما تاهت يده الضخمة المكسوة بالشعر فوق حافة الكوب وقطرات « الفاولر » تتساقط في الماء . تجرع الدواء دفعة واحدة ، ولم تتنبه تبريز وقد اذهلتها الأحداث ، فلم تقل له انه ضاعف الجرعة المعتادة . غادر الجميع المائدة ولم يبق الا هي فاخذت تقشر حبات اللوز الاخضر في فتور وانصراف عما يجري . ان الكارثة التي ذعر لها الجميع لا تعنيها في شيء فليس يعنيها الا ما يدور في نفسها من مآس . لم تدق اجراس الكنائس معلنة حالة الخطر ، ولم يلبث برنار ان عاد :

Looloo
www.dvd4arab.com

— هـذه المرة كنت انت على صواب فى عـدم الانزعاج .. ان الحريق فى جهة مانو بعيدا عنا ...

ثم سأل :

— هل تناولت دوائى ؟

ومن غير ان ينتظر الرد على سؤاله عاد فاسقط من قطرات الدواء فى الكوب وشرب . ولم تتلفظ بكلمة تكاسلا منها بلا شـك وارهافا — ما الذى تأمل فيه فى تلك اللحظة ؟

— من المستحيل ان اكون قصدت عامدة الى التزام السكوت.

ولكنها فى تلك الليلة ، وهى واقفة الى جوار فراش برنار،الذى كان يتقيأ امعاءه ويبكى ، سألها الدكتور بيديمى عما حدث فى خلال النهار ، لم تذكر شيئا مما راته وهى على مائدة الطعام . وما كان ايسر لها لابعاد الشـبهات عنها ان تلفت نظر الطبيب الى كمية الزرنيخ التى تناولها برنار . كان فى استطاعتها ان تقول مثلا :

— لم أتنبه الى ذلك على التـو .. كنا جميعـا فى ارتبـاك بجنونى بسبب خطر الحريق.. ولكنى أؤكد لكم الآن انه تناول جرعة مضاعفة ... » لم تقل شيئا وظلت صامته . هل شـعرت فى نفسها بوجود دافع .. مجرد دافع الى الكلام ؟ ان ما حدث فى أثناء الافطار وكان فى علمها من غير ان تدرى ، بدا يبرز بعـد ذلك من قرارة نفسها مبهما غامضا فى اول الامر ، ولـكنه واضـح بعض الوضوح فى شعورها .

بعد انصراف الطبيب نظرت تيريز الى برنار وقد استسـلم اخيرا للنوم . قالت لنفسها .

— لا يوجد شىء يثبت ان ما حدث له كان نتيجة « ذلك الأمر» لعلها ازمة من ازمات التهاب الزائدة الدودية على الرغم من عـدم وجود اغراض اخرى تدل عليها ، أم لعلها حالة حمى خبيثة .. ولكن برنار سرعان ما عاد الى حالته الطبيعية بعد ذلك يـومين. « هناك احتمال كبير ان يكون ما حدث هو نتيجة ذلك الأمر » . هل هى واثقة من ذلك ؟ كلا . انها تود لو استطاعت ان تستوثق منـه . « نعم . لم اكن اشعر ابدا انى فريسـة اغراء فظيع . كل

ما هنالك انه حب استطلاع — وربما كان على شىء من الخطـورة — اردت ان اشفيه فى نفسى . فى اليوم الاول قبل ان يدخل برنار الى غرفة الطعام اسقطت فى كوبه قطرات من (الفاولر) . وانى لاذكر الآن انى كررت القول لنفسى : هذه المرة الوحيـدة فقط حتى استوثق من الأمر . سأعرف اذا ما كان هذا هو الذى سـبب له ما حدث . مرة واحدة وبعدها ينتهى الأمر »

* * *

هدأ القطار من سرعته واطلق صفارة طويلة ثم عاد يستأنف السير . مصباحان او ثلاثة فى وسط الظلام . انها محطة سانت كلير لم يعد لدى تيريز شىء تتفحصة . لقـد هوت فى جوف الجريمة العميق فابتلعتها الجريمة . اما ماحدث بعد ذلك فهو معلوم لدى برنار بقدر ما هو معلوم لديها : لقد عاوده الداء فجأة وسهرت تيريز الى جوار فراشه ترعاه ليلا ونهارا على الرغم من حالة الأجهاد الشديد التى كانت تعانيها ، وعلى الرغم من عزوف نفسها عن كل طعام .

لقد حاول برنار ان يحملها على تناول دواء الفاولر لتقوى وحصلت من الدكتور بيديمى على تذكرة بذلك .

ياله من ساذج هذا الطبيب !

لقد كان يبدى دهشته لهذا السائل الأخضر الذى يلفظه برنار من احشـائه ، ولم يكن يعرف سببا لهذا التنـافر الواضح بين نبض المريض ودرجة حرارته . لطالما لاحظ فى الكثير من حالات الباراتيفويد وجود النبض الهادىء ، على الرغم من ارتفاع درجة الحمى . ولكن ما معنى هذه النبضات المتتابعة السريعة مع هذه الحرارة التى تقل عن الدرجة العادية ؟

انها حالة حمى خبيثة . لاشك فى ذلك ، هى الحمى ، أن فيها تفسيرا لكل مايرى .

فكرت مدام دى لاتراف فى استحضار طبيب كبير لاستشارته ولكنها لم تكن ترغب فى اخـراج الدكتور بيديمى هذا الصديق القديم ، هذا بينما تيريز تخشى على برنار من اخطار الوهم والخوف على حياته . ولكن فى منتصف اغسطس وعلى اثر ازمة اكثر حدة

Looloo
www.dvd4arab.com

من سابقاتها اعرب الدكتور بيديمى من تلقاء نفسه عن رغبته فى الاستعانه باحد زملائه .

من حسن الحظ بدات حالة برنار فى التحسن من اليوم التالى وما أن انقضت اسابيع ثلاثة حتى اخذ الجميع يتكلمون عن النقاهة .

وقال الدكتور بيديمى :

ـ لقد نجوت باعجوبة . لو أن هذا الطبيب الكبير حضر الى هنا لاختص نفسه بالفخر كله .

طلب برنار أن ينتقل الى ارجلوز موقفا انه قد يشفى تماما عند حلول موسم صيد الحمام البرى .

اجهدت تيريز نفسها كثيرا فى تلك الفترة ، فقد اصيبت العمه كلارا بازمة روماتزمية حادة اقعدتها فى فراشها ، ووقع الحمل كله على كاهل المراة الشابه . مريضان وطفلة فى حاجة الى خدمة ورعاية بالاضافة الى المهام التى تركتها العمة كلارا معلقة تتطلب الحل .

بذلت تيريز كثيرا من حسن النية والاجتهاد فى القيام مقامها بالخدمات التى كانت تؤديها للفقراء والبؤساء عن أهل اوجلوز . طافت ببيوت المزارعين وعنيت كما كانت تفعل عمتها باعداد تذاكر الدواء ، ودفعت من جيبها ثمن ذلك كله .

لم تفكر فى التأسى على بقاء مثزل فلميجا مغلقا . انها لم تعد تمر بذاكرتها على جان ازيفيدو ولا على اى انسان آخر فى الوجود لقد اندفعت بمفردها فى نفق مظلم غليها فيه الدوار ، وها هى ذى قد وصلت الى أحلك مراحله ، فيجب عليها أن تقطعه بلا تفكير كما يفعل الحيوان الأعجم يجب عليها أن تخرج من هذه الظلمات الدامسة ، من هذا الدخان الحالك ، كى تصل الى الهواء الطلق ، سريعا ، سريعا .

فى اوائل ديسمبر عاود برنار الداء فاقعده عن الحركة . قام من نومه صباح احد الأيام وبه رعشة ، وقد جمدت ساقاه وانعدم منهما الاحساس . ما الذى حدث بعد ذلك ؟ جاء الطبيب من بوردو لتقديم مشورته ، استقدمه مسيو دى لاتراف . فحص

المريض ثم التزم الصمت طويلا . كانت تيريز ممسكة بالمصباح ومازال باليونت يذكر انها كانت شاحبة الوجه فى لون غطاء السرير الابيض او اكثر منه بياضا . الدكتور بيديمى على حافة السلم ، حيث لا يصل الا ضوء ضئيل ، وقف يشرح لزميله وقد خفض من صوته بسبب وجود تيريز على مقربة تتسمع ، قال ان الصيدلى دراكى أراه تذكرتين من تذاكره بهما تزوير ظاهر . فى احداهما اضافت اليد الاثيمة عبارة « شراب فاولر » وفى الاخرى اضيفت جرعات كبيرة من الكلوروفورم والديجيتالين والاكونيت .. هاتان التذكرتان جاء بهما باليون الى الصيدلية مع كثيرات غيرهما . لقد شعر دراكى بالخشية بعد أن صرف هذه الكميات الكبيرة من السموم ، فهرول مسرعا فى اليوم التالى الى بيديمى يستوضحه الامر ... نعم ان برنار يعرف هذا كله ، كما تعرف تيريز ايضا . جاءت عربة اسعاف ونقلته على جناح السرعة الى بوردو حيث دخل احدى العيادات ، ومنذ ذلك اليوم اخذت صحته تتحسن . بقيت تيريز بمفردها فى ارجلوز ، ولكنها على الرغم من هذه الوحدة كانت تلحظ من حولها ضجة كبرى . انها كالحيوان القابع يستمع الى ضجيج كلاب الصيد تقترب منه . انها تشعر بالتعب والاجهاد كما لو كانت خارجه لتوها من سباق جنونى مرير ، كما لو كانت ، وهى على بعد خطوة من الهدف وقد مدت يدها لتلتقطه ، قد وجدت نفسها ملقاة على اديم الارض مكسورة الساقين . لقد جاء اليها ابوها فى احدى الامسيات فى اواخر الشتاء متضرعا اليها ان تبرىء نفسها مما حدث . مازال فى الامكان انقاذ كل شىء . لقد قبل بيديمى ان يسحب شكواه ـ هو يقول انه لم يعد يذكر اذا ماكان قد كتب احدى هذه التذاكر كلها بيده . أما عن الاكونيتين والكلوروفورم والديجيتالين فهو لايمكن أن يكون قد وصف منها جرعات بهذا الحجم الكبير ، ولكن مادامت لم تظهر آثار لاى منها فى دم المريض .

تذكرت تيريز هذا الحديث مع ابيها بالقرب من فراش العمة كلارا . نار الخشب فى المدفأة تضىء الحجرة فلم يكن اى منهما يرغب فى ضوء المصباح . كانت تشرح بصوت رتيب ، صوت الطفل

Looloo
www.dvd4arab.com

الذى يكرر درسا حفظه ، (وقد حفظت هذا الدرس طوال ليالها التى جافاها فيها النوم) فتقول :

ـ لقد قابلت على الطريق رجلا ليس من أهل ارجلوز . قال لى هذا الغريب ، انى مادمت ابعث رسولا الى داركى فلربما قبلت أن اتولى عنه صرف تذكرته . انه مدين لداركى فى بعض المال ولا يرغب فى مواجهته فى الصيدلية .. لقد وعدنى بالحضور الى المنزل لاخذ الدواء ولكنه لم يترك لى لا اسما له ولا عنوانا .

ـ ابحثى لك عن رواية اخرى ، ياتيريز ، اتوسل اليك باسم العائلة ابحثى لك عن رواية اخرى ايتها التعسة ..

اندفع الأب لاروك يكرر قوله هذا وتوسلاته امام ابنته فى اصرار وحنق ، بينما العمة كلارا وقد انتصبت قليلا فى فراشها من غير أن تسمع شيئا مما يدور من حديث ، ولكنها شعرت بشىء قاتل فظيع يهدد تيريز ، أخذت تردد فى صوت خافت متسائلة :

ـ ما الذى يقوله ؟ ماذا يريدون منك ؟ لماذا يرغبون فى ايذائك ؟

وجدت تيريز من القوة مايكفى للابتسام لعمتها وضم يدها بين كفيها ، وكالطفلة الصغيرة التى تستعيد درسا فى الدين راحت تلقى كلماتها :

انه رجل على الطريق . كان الظلام حالكا فلم اتبين وجهه . لم يقل لى فى اى مزرعة يقطن . فى ليلة اخرى جاء واخذ الادوية . لسوء الحظ لم يره احد ممن فى البيت ..

ـ ٩ ـ

وصل القطار آخر الامر الى سانت كلير . لم يعرف تيريز احدا عند نزولها من العربة . بينما ذهب باليون لتسليم التذكرة التى سافرت بها ، دارت هى حول مبنى المحطة ، ومن خلال اكوام الواح الخشب المتراصة وصلت الى الطريق حيث وقفت العربة تنتظر .

هذه العربة اصبحت الآن مأوى لها على الطريق الملىء بالاخاديد والحفر . فليست تخشى من مقابلة احد . ان قصتها كلها التى

اعادت بناءها فى عناء والم تنهار . لم يبق فى ذهنها شىء من هذا الاعتراف الذى اعدته . لا . لم يعد لديها دفاع تبديه ، بل ولا سبب واحد تتذرع به . لعل ايسر الامور عليها ان تصمت تماما أو أن تجيب على قدر ما قد يلقى عليها من اسئلة ـ ما الذى يمكن ان تخشاه ؟ ستمر هذه الليلة كسائر الليالى الاخرى ، وستشرق الشمس غدا . انها على ثقة من النجاة مهما حدث من امر . وما من شىء يحتمل حدوثه اسوا من هذه اللامبالاة من هذا الانعزال الكامل الذى يبعدها عن العالم وعن كيانها نفسه . نعم ، انه الموت فى الحياة . انها تتذوق الموت بقدر ما تتذوقه امرأة على قيد الحياة .

* * *

عند منعطف الطريق عرفت عيناها ، وقد تعودتا الظلام ، تلك المزرعة التى تحوى بضعة مساكن خفيضة كانها دواب قبعت لتنام . فى هذا المكان كثيرا ما ارتعبت آن خوفا من الكلب الذى كان يندفع دائما بين عجلات دراجتها ، وعلى مقربة من هذه المزرعة اشجار السنديان التى تظلل الوادى الصغير حيث تهب النسمة العابرة فى ايام القيظ الحارقة ، وحيث كانت الشابتان تجيئان لتتلقى هذا النسيم على وجنتيهما الملتهبتين ، وغلام على دراجته تلمع أسنانه من تحت القبعة الواقية من الشمس ورنين الجلاجل ينبعث ، وصوت الغلام يصيح :

ـ انظروا ! لقد رفعت يدى الاثنتين عن مقود الدراجة .

هذه الصورة المبهمة ظلت عالقة فى مخيلة تيريز . انها كل مابقى لها من ايامها الماضية لتريح فيها قلبها المضنى من الاجهاد . اخذت تستعيد كالآلة كلمات نظمت مقاطعها على وقع عدو الحصان الذى يجر العربة .

ـ لا جدوى من الحياة .. حياتى فارغة .. وحدة بلا حدود .. قدر لا مفر منه ..

شىء واحد قد يأتى بالنجاة ، ولكن برنار لن يفعله . لو ان برنار فتح ذراعيه من غير ان يلقى سؤالا .. ! لو انها استطاعت ان

Looloo
www.dvd4arab.com

تتكىء براسها على صدر انسان حنون .. ! لو انها استطاعت ان تبكى فى أحضان انسان .. !

رات الربوة التى جلس عليها جان ازيفيدو يوما من ايام الحر الشديد . لقد خيل لها من قبل ان هناك مكانا فى العالم تستطيع عواطفها ان تزدهر فيه وسط اناس يفهمونها ، وربما يقدرونها ويحبونها ! لا ، ان وحدتها الصق بها من التصاق القروح بجسم المجزوم :

ـ ما من احد يستطيع لى شيئا ... ما من احد يستطيع ضدى شيئا ..

ـ هذا هو سيدى ومعه الآنسة كلارا

قال باليون ذلك وشد على لجام الجواد . تقدم شبحان من العربة . هذا هو برنار ، على الرغم مما هو فيه من ضعف قد جاء للقائها متلهفا يريد ان يعرف نتيجة المحاكمة . انتصبت فى جلستها ، وعلى البعد صاحت :

ـ لا وجه لاقامة الدعوى .

لم يقل برنار كلمة غير « كان الامر متوقعا »

ثم اخذ يعاون العمة كلارا على الوصول الى اعلى العربة وامسك بيده اللجام بينما نزل باليون ليعود على قدميه الى البيت. توسطت العمة كلارا مجلس الزوجين وكان لابد ان يصرخ كل منهما فى احدى اذنيها ان الامر قد سوى تماما ، على انها لم تكن تعرف عنه فى الواقع الا الشىء المبهم القليل . وكما هى عادتها اندفعت تتكلم بدون انقطاع قالت :

لقد كان هذا الاسلوب دائما اسلوب الحكام وهذه الطريقة طريقتهم ، انها قضية دريفوس تعود من جديد ، نعم ، اكذب ثم اكذب فسيبقى من كذبك اثر ، نعم لقد كانوا اقوياء حقيقة هؤلاء الدساسون ولكن عيب الجمهوريين انهم لم يأخذوا دائما الحذر ، ما ان تترك لهؤلاء الوحوش القذرين الفرصة حتى ينقضوا عليك ويعملوا فيك انيابهم ..

هذا الهراء اعفى الزوجين من تبادل الكلام فيما بينهما .

صعدت العمة كلارا السلم لاهثة وفى يدها شمعة مضاءة :

ـ هلا اويت الى فراشك يا تيريز . انك لابدمجهدة . ستجدين فى غرفتك قدحا من الحساء وبعضا من لحم الدجاج البارد .

ولكن الزوجين ظلا واقفين فى الدهليز . نظرت المراة العجوز الى برنار وهو يفتح باب الصالون ويفسح لتيريز الطريق ثم يغيب خلفها . لو لم تكن صماء لا لتصقت باذنها الى الباب المغلق . ولكن لا داعى الى الحذر مع هذه المراة التى تعيش حية فى صمت القبور . اطفات العجوز الشمعة وهبطت السلم تتحسس خطاها ووضعت عينها على خرق قفل الباب . رات برنار يحرك المصباح من مكانه فبدا وجهه واضحا فى الضوء وقد اكتسى رهبة وجدا . رات تيريز من ظهرها جالسة وقد القت على احد المقاعد بمعطفها وقبعتها وعرضت حذاءها المبتل للنار فتصاعد منه البخار . وفى لحظة من اللحظات ادارت تيريز وجهها نحو زوجها وغمرت المراة العجوز موجة من الفرح فقد راتها تبتسم .

كانت تيريز تبتسم . وفى خلال الفترة الزمنية القصيرة التى اخترقت فيها الى جانب زوجها المسافة البسيطة التى تفصل ما بين الاسطبل والمنزل اكتشفت تيريز فجاة ، بل ظنت انها اكتشفت الشىء الوحيد الذى يجب عليها ان تعمله . ان مجرد القرب من هذا الرجل قد بدد فيها كل آمالها فى شرح تعرفها وفى الافصاح عن قرارة نفسها ، وما اقدرنا على تشويه الاشخاص الذين نحن اعرف الناس بهم حينما يكونون بعيدين عنا ! طوال رحلتها فى القطار اجهدت عقلها بغير شعور منها تحاول ان تخلق فى برنار الرجل القادر على فهمها ، او على محاولة فهمها . ولكن ما ان القت عليه نظرتها الاولى حتى بدا لها كما هو على حقيقته : انسانا لم يضع نفسه قط ولو لمرة واحدة فى حياته مكان غيره من بنى البشر ، انسانا يجهل ذلك الجهد اللازم للتجرد من ذاتيته ورؤية مايراه الآخرون . هل سيصغى اليها برنار ؟ مجرد الاصغاء ؟ كان يروح ويجىء وسط الغرفة المنخفضة الرطبة التى تئن اخشابها المتآكلة تحت وطء اقدامه . لم يكن ينظر الى زوجته وقد امتلأ راسه بالكلمات التى اعدها واستعدها لها منذ زمن بعيد . تيريز هى الاخرى كانت على علم بما ستقول . ان ابسط الحلول هى دائما

Looloo
www.dvd4arab.com

تلك التى لم نفكر فيها ابدا . كانت على وشك ان تقول :

ـ سأختفى يابرنار . لاتشغل بالك بى . سأختفى حالا اذا شئت . سأغوص فى الليل . ان الغابة لاتخيفنى لا ولا الظلمات .. انها جميعا تعرفنى . كل منا يعرف الآخر . لقد خلقت على صورة هذه المناطق القاحلة التى لا يوجد فيها كائن حى غير الطيور والخنازير البرية الجائلة الشاردة .. انى اقبل ان تلفظونى من بينكم . احرقوا صورى جميعا . ولتجهل ابنتى حتى اسمى لاصبح فى نظر العائلة وكأنى ماوجدت قط .

ها هى ذى تيريز تفتح فمها لتقول :

ـ اتركنى اختفى يا برنار ...

عندما سمع برنار هذا الصوت اقبل مندفعا من آخر الغرفة وقد انتفخت اوداج وجهه وقال متلعثما :

ـ ماذا ؟ اتجسرين على ان تجعلى لك رأيا ؟ ان تبدى لك رغبة ؟ كفى . لا تلفظى كلمة واحدة . ليس لك الا أن تسمعى ، ان تتلقى اوامرى . ان تعملى وفقا لما اتخذه من قرارات قاطعة .

لم يعد مترددا فى كلماته . انه يواصل العبارات التى اعدها فى عناية من قبل . اخذ يرسل الالفاظ وهو متكىء على حافة المدفأة . انه يتكلم بصوت رهيب . اخرج ورقة من جيبه ونظر فيها . فارقت تيريز الرهبة وشعرت بحاجة ملحة الى الضحك . يالله من مضحك ! انه مضحك . لاقيمة لما يقوله بتلك اللهجة الذرية الحقيرة التى تضحك سامعها فى كل مكان الا فى سانت كلير . انها سترحل ، فلم كل هذه المآسى ؟ ليس مما يهم ابدا ان يزول هذا الغبى من عداد الاحياء . لاحظت على الورقة المرتعشة اظافره التى لم يعن بنظافتها . لقد خلت اكمامه من الاساور فهو من هؤلاء الريفيين الذين تبدو عليهم الذرابة اذا خرجوا بعيدا عن جحورهم ، والذين حياتهم لاتهم رأيا ولا احدا ولا فكرا . ان العادة وحدها هى التى تجعلنا نعلق اهمية على حياة الانسان . لقد كان روبسبيير على حق كما كان نابليون ... ولينين ايضا . وآها وهى تبتسم فاشتد غضبه ورفع عقيرته بالكلام فكان فرضا عليها ان تستمع اليه وهو يقول :

ـ انا قابض عليك بين يدى .. مالك ناصيتك .. هل تفهمين ؟ ستطيعين القرارات التى تصدرها العائلة والا ...

ـ والا ... ماذا ؟ ..

لم تعد تفكر فى التظاهر بعدم الاكتراث وانما اتخذت لنفسها لهجة التحدى والسخرية . اخذت تصرخ وتقول :

ـ لقد سبق السيف العزل . انك شهدت فى صالحى ولم يعد فى وسعك ان ترجع فى شهادتك والا حكم عليك بشهادة الزور .

ـ من الممكن أن تكتشف واقعة جديدة . انى امتلكها فى مكتبى ، هذه الواقعة التى لم يكشف عنها بعد . ليس فى الدعوى سقوط ولله الحمد .

ارتعدت فرائصها عند هذا القول فسألته :

ـ ماذا تريد منى ؟

عاد الى مذكرته يفحصها ، ومضت بعض ثوان ظلت تيريز اثناءها تنصت الى الصمت الرهيب المخيم على ارجاوز . ان الساعة التى تصيح فيها الديكة مازالت بعيدة لم تحن بعد ، وما من ماء جار ينساب فى تلك الصحراء وما من نسمة هواء تحرك قمم الاشجار التى لاعدد لها .

ـ اننى لا اصدر عن اعتبارات شخصية . انا انزوى فلا قيمة لى وانما العائلة وحدها هى التى لها حساب يحسب . ان مصالح العائلة هى وحدها التى تملى على قراراتى . لقد قبلت ، من اجل شرف العائلة ، ان اخدع عدالة بلادى . سوف يحاكمنى الله عن ذلك ...

هذه العبارات الرنانة كانت تؤذى مسامع تيريز . كانت تود لو استطاعت ان تضرع اليه ليتكلم فى بساطة .

ـ من المهم للعائلة ان يعتقد الناس اننا مازلنا مرتبطين ، والا ابدو فى نظر الناس وكأنى غير مؤمن ببراءتك . ومن جهة اخرى اريد ان احافظ على نفسى بقدر ما استطيع ..

ـ هل انا اخيفك يا برنار ؟ .

رد عليها بصوت خافت :

ـ أما عن الخوف ، فلا ، ولكنه البغض والكره .

Looloo
www.dvd4arab.com

ثم اضاف الى ذلك .

— لنعمل سريعا ولنقل كل مايلزمنا قوله مرة واحدة . سنغادر غدا هذا البيت لنقيم الى جواره فى بيت ديكوبرو . لا اريد عمتك فى منزلنا . وجبات طعامك ستقدمها اليك بالبيونت فى غرفتك . اما باقى حجرات البيت فسيحرم عليك دخولها ، على انى لا احظر عليك التجول فى الغابة . فى ايام الاحاد سنذهب معا الى القداس الكبير فى كنيسة سانت كلير . يجب ان يراك الناس فى ذراعى . وفى الخميس الاول من كل شهر سنذهب معا بالعربة الى سوق .ب. عند أبيك كما كنا نفعل دائما من قبل .

— وماري ؟

— سترحل ماري غدا . مع خادمتها الى سانت كلير ؛ وبعد ذلك ستبعث بها امى الى الجنوب . سنجد لذلك سببا نسببه الى الاعتبارات الصحية . هل كنت تأملين حقا اننا سوف نتركها لك ؟ يجب ان نضعها فى حماية هى الاخرى . بعد وفاتى وعندما تبلغ الحادية والعشرين من عمرها ستصبح هى صاحبة الملكية . وبعد الزوج قد يأتى دور البنت .. ولم لا ؟

وقفت تيريز وحبست صرخة فى صدرها :

— اذن انت تعتقد انى من اجل اشجار الصنوبر ...

ياله من غبى من بين آلاف الاسباب الخفية التى دعتها الى ما قدمت عليه من اسباب لم يكتشف واحد منها . وها هو ذا يخترع سببا آخر احطها وادناها جميعا .

— طبعا من اجل اشجار الصنوبر ..! وهل هناك سبب آخر؟ يكفى ان تستعرضى الاسباب جميعها واتحداك ان تجدى سببا غير هذا .. وعلى كل حال فالامر غير ذى بال ولم يعنينى شىء من ذلك كله . لم اعد اسأل نفسى اى سؤال ، فلم يبق منك شىء يذكر . كل مابقى هو الاسم الذى تحملينه ، وا اسفاه !. بعد بضعة اشهر عندما يصبح الناس جميعا مقتنعين بقيام الوفاق بيننا ، وبعد أن تتزوج آن من ديجلهيم .. انت تعلمين ان آل ديجلهيم يطلبون مهلة وانهم يريدون التفكير فى الامر .. عندئذ سوف استطيع العودة

الى الاقامة فى سانت كلير . اما انت فستبقين هنا .. ستصابين بداء الاعصاب او باى داء آخر ..

— الجنون ... مثلا ... ؟

— لا ... ان هذا يلحق ضررا بمارى ... ولكن الاسباب المقبولة لن تنقصنا ... هذا هو الأمر ..

قالت تيريز متململة :

— فى ارجلوز .. حتى الموت ..

ثم اقتربت من النافذة ففتحتها . فى تلك اللحظة شعر برنار بلذة حقيقية . هذه المرأة التى طالما سادته واذلته ، ها هو ذا فى هذه الليلة قد قهرها . واى قهر ؟ انه يشعر بالكبرياء ينبعث من اعتداله . لطالما قالت له مدام د ى لاتراف انه قديس ، ولطالما اشادت العائلة كلها بنبل طباعه ، انه اليوم يشعر للمرة الاولى بهذا النبل ويلمسه . حينما بلفه ، وسط الاف الاحتياطات ، وهو فى المصحة ، نبأ الجريمة التى اقترفتها تيريز لم تكلفه كثيرا من الجهد تلك الشجاعة التى اظهرها واجتذبت له المديح والاطراء من الجميع . ليس هناك شىء يتمثل فيه الخطر الحقيقى بالنسبة لأولئك الذين لا قدرة لهم على الحب .

ولما كان برنار مجردا من الحب فهو لم يشعر الا بتلك الفرحة المرتجفة التى يشعر بها المرء بعد الافلات من الخطر الداهم المميت ، فرحة الرجل الذى يعلم انه قد عاش سنوات طويلة من غير أن يدرى فى صحبته مجنون عنيف — ولكن برنار فى هذه الليلة كان مدركا لشعوره بقوته . لقد تغلب على الحياة . وتحقق له فى اعجاب انه ما من عقبة تقف فى سبيل العقل المستقيم الذى يفكر تفكيرا سليما . حتى بعد تلك المأساة كان على استعداد لان يؤيد القول القائل بان المرء لايشقى ابدا الا بخطئه ان أقسى الماسى وابعدها اثرا ، ها هو ذا قد سواها كما يسوى اية مشكلة اخرى . لن يعرف احد شيئا تقريبا مما حدث وسينقد المظاهر البادية امام الناس فلن يلومه بعد اليوم احد ولن يرثى لحاله احد . هل يمكن ان يعير الرجل بزواجه من امرأة معتوهة قاسية عندما تكون الكلمة الاخيرة فى يد الزوج المنكوب . ان فى حياة العزوبة جانب مفيد

Looloo
www.dvd4arab.com

لخصوصا وقد زاد عنده باقتراب الموت حبه الكبير للتملك وللصيد ولركوب السيارة ولكل مايؤكل وما يشرب — وللحياة بوجه عام .

ظلت تيريز واقفة امام النافذة — كانت ترى جانبا من حصباء الطريق البيضاء وتشم رائحة ازهار الكريزانتيم التى يحميها سياج من غائلة القطعان ، وعلى البعد كانت تقوم اشجار البلوط السوداء تنشر ستارها على الصنوبر فتخفيه كأنه جيش من الاعداء لايرى ولكنه قريب . كانت تيريز تعرف ان هذه الاشجار تحيط بالبيت من كل جانب حراسا اشداء . كانت تعلم ان هؤلاء الحراس الذين تسمع على البعد شكواهم المكبوتة سيرونها وهى تذبل طوال فصول الشتاء القارصة ثم يرونها وهى تحترق طوال فصول الصيف الملتهبة . سيصبحون ويمسون شهداء على اختناقها القاسى البطىء .

اغلقت النافذة واقتربت من برنار :

— هل تعتقد انك قادر على استبقائى قسرا عنى ؟

— انت وما تشائين .. ولكن اعلمى جيدا .. لن تخرجى من هنا الا وانت مقيدة اليدين .

— يا للمبالغة ! .. اننى ادرى بك .. لاتتظاهر بالقسوة فهى ليست من طبعك . لن تعرض العائلة لمثل هذا العار . انى مطمئنة تماما .

عندئذ اكتسى برنار ثوب الرجل العاقل الرزين وقال لها شارحا ان فرارها هو بمثابة اعتراف منها بالجرم . وفى هذه الحالة لن تنجو العائلة من العار الا ببتر العضو المصاب منها ، بالقائه بعيدا ، وبانكاره علنا امام الناس والتبرؤ منه . ثم قال :

— بل ان هذا الحل هو الذى ارادت امى فى اول الامر ان تستمسك به . تصورى ، لقد اوشك بنا الامر ان نترك العدالة تأخذ مجراها .. ولولا ما يتعلق بآن وبمارى .. ولكن مازال فى الأمر متسع .. لا تتعجلى الرد .. انك اتركك الى غد ..

قالت تيريز بصوت مكبوت :

— سيبقى لى ابى .

— ابوك ؟ نعم ، نحن موافقون تماما على هذا . ولكن لابيك مستقبله السياسى وله حزبه وله الآراء التى يمثلها انه لايفكر الا فى خنق الفضيحة أيا كان الثمن . اعترفى له على الاقل بما فعله من اجلك . اذا كان التحقيق قد طوى على عجل فانما يرجع الفضل فيه اليه .. على انه لابد قد اعرب لك عن رغبته الصريحة .. اليس كذلك ؟

كف برنار عن رفع صوته وكاد ان يعود الى مزاجه الهادىء الوديع . لم يكن ذلك لشعوره بشىء من الشفقة مهما كان ضئيلا ، ولكن تلك المرأة التى لم يكن يسمع لها انفاسا فى تلك اللحظة كانت قد هجمت والقت سلاحها اخيرا . لقد عرفت مكانها الحقيقى وعاد كل شىء الى نظامه الرتيب . ان اى رجل آخر غير برنار ماكان ليظل ساكنا امام كل هذا النجاح والتوفيق . لقد كان فخورا بما حققه من تقويم هذا الاعوجاج : كل منا قد يخطىء ولقد اخطأ الجميع فيما يتعلق بتيريز . حتى مدام دى لاتراف نفسها وهى الخبيرة بالتعرف على طباع كل الذين يعيشون معها . ذلك ان الناس الآن لم يعودوا يستمسكون كثيرا بالمبادىء . انهم لايشعرون بالخطر الكامن فى نوع التنشئة التى نشئت عليها تيريز . انها وحش ضار ، هذا لاشك فيه . ولكن ، ايا كان الحال ، لو انها كانت مؤمنة بالله .. ان الخوف هو اول مراحل الحكمة . هذا هو ماكان يدور بخلد برنار وبتفكيره . كان يقول لنفسه ايضا ان القرية كلها التى كانت تتحرق شوقا للشماتة بهم والتلذذ بما اصابهم من عار سوف تشعر بخيبة الأمل فى كل يوم من ايام الاحاد عند رؤية الاسرة على ماهى عليه من مظهر الوفاق والترابط . انه فى قرارة نفسه ود لو ان يوم الاحد اقبل سريعا ليرى ماتكون عليه وجوه القوم ، ولن تفقد العدالة فى ذلك شيئا .

امسك المصباح بيده ورفعه فأضاء بنوره ظهر تيريز :

— الا تصعدين بعد ؟

لم يبد عليها انها سمعت كلماته . فخرج هو من الغرفة وتركها فى الظلام . عثر على العمة كلارا مكومة على اولى درجات السلم ، عندما نظرت اليه العجوز ابتسم لها فى تكلف واخذ يذراعها يساعدها

Looloo
www.dvd4arab.com

على النهوض . ولكنها قاومت كما يقاوم الكلب العجوز عندما يراد ابعاده عن فراش سيده المحتضر — وضع برنار المصباح على الارض واقترب بفمه من اذن العمة كلارا يصرخ فيها ، ان تيريز تشعر الآن بالراحة ولكنها تريد أن تبقى بمفردها لحظة قبل ان تذهب لتنام. قال لهـا :

— تعلمين ان هذه احدى نزواتها .

نعم ، ان العمة كلارا تعرف ذلك ، ان حظها السيىء يريد دائما الا تدخل على تيريز الا فى الاوقات التى تريد فيها المرأة الشابة ان تبقى بمفردها . وكثيرا ماكانت العجوز تشعر بمجـرد ان تفتح الباب على تيريز ان وجودها قد اصبح غير مرغوب فيه .

انتصبت العمة كلارا فى عناء وصعدت مستندة الى ذراع برنار الى الغرفة التى تشغلها فوق الصالون . دخل خلفها برنار واهتم باشعال شمعته فوق المنضدة ثم قبلها فى جبهتها وانصرف . لم ترفع العمة عينيها عن برنار ، فما من شيء على وجوه الرجال لم تدركه بسمعها الا وادركته بحسها وفطنتها . تركت لبرنار مايكفى من الوقت لدخول غرفته ، ثم عادت فى سكون تفتح الباب .. انه مازال واقفا فى الردهة متكئا على سياج السلم وقد انشغل بلف سيجارة . اسرعت عائدة وقد تخلخلت ساقاها وتقطعت انفاسها حتى انها لم تقو على خلع ملابسها فارتمت فى فراشها وظلت مستلقية مفتحة العينين .

— ١٠ —

فى الصالون . تيريز جالسة فى الظلام . بصيص من النار ما زال حيا بين رماد المدفأة . الآن وقد فات الاوان اخذت تبرز من ذاكرتها اجزاء من ذلك الاعتراف الذى قضت فى اعداده طوال رحلة السفر . ما الذى يدعوها لان تلوم نفسها على عـدم الاستفادة من هـذا الاعتراف ؟ هذه القصة فى الواقع ، التى بنت تفاصيلهـا بحنكة ومهارة . لا يربطها بالحقيقة والواقع اى رباط . تلك الاهمية التى حلا لها ان تضفيها الى احاديث الشاب ازيفيدو ! .. يالهـا من حماقة ..! هل فى ذلك مايقام له ادنى وزن ؟ لا ، لا ، لقد استجابت الى دون عميق قانون قاس لايرحم . لقد عجزت عن القضاء على

تلك العائلة ، اذن فليقض عليها هى .. انهم على حق اذ يعتبرونها وحشا ضاريا ، ولكنها هى الاخرى تعتبرهم وحوشا كواسر . انهم سيعملون فى بطء وتؤدة على افنائها من غير ان يظهر من ذلك شيء فى الخارج

— منذ الآن سوف يسير ضدى هذا الجهاز العائلى الجبار ، وما ذلك الا لانى لم اعرف كيف اوقف حركته ولم استطع الفرار من براثنه فى الوقت المناسب . لا جدوى فى البحث عن علة اخرى غير هذه العلة : لقد كانوا هم على ماهم عليه ، وكنت انا على ما انا عليه ... هذا الجهد الذى ظللت ابذله طوال سنتين او اقل قليلا فى التخفى وستر ملامحى والتظاهر بما يختلف عن حقيقتى ... هناك فى اعتقادى اناس اخرون ، هم على شاكلتى ، يثابرون على بذله الى ان يدركهم الموت . لعلهم وجدوا فى الاعتيـاد عونا لهـم على ذلك . ان العادة مخدر قوى على المتاعب . لقد تبلدوا فناموا قانعين فى احضان الاسرة تلك الام القوية العاتية . أما انا ... أما انا .. فلا ...

نهضت تيريز من جلستها وفتحت النافذة فغمرتهـا برودة الفجر . لماذا لاتهرب من هذا السجن ؟ ماعليها الا ان تقفز من تلك النافذة . هل سوف يلحقون بها ؟ ويضعونها مرة ثانية امام القضاء ؟ انها فرصة متاحة لها على مافيها من مجازفة . كل احتمال قد يهون الا هذا الاحتضار الذى لا نهاية له . ها هى ذى تيريز تسحب مقعدا وتسنده الى النافذة . ولكنها خالية الوفاض لاتملك مالا . ان الآلاف من اشجار الصنوبر التى تملكها لاتغنيها فتيلا ؛ فليست عن غير طريق برنار تستطيع الحصول على فلس واحد . هل تندفع هائمة على وجهها وسط اراضى اللاند القاحلة ؟ كما فعل من قبل واجير ذلك القاتل المطارد الذى طالما احست نحوه تيريز بالعطف ايام طفولتها . انها مازالت تذكر الجنود الذين كانوا يطاردونه وقد سقتهم بالبونت النبيذ فى مطبخ ارجلوز . كذلك تذكر ان كلب ديكريرو هو الذى كشف عن آثار الرجل البائس الطريد .. لقد عثروا عليه وهو يوشك ان يموت جوعا وسط الاحراش . لقد رأته تيريز مكبلا بالحديد فوق عربة ملأى بالقش ، ثم قيل لهـا

Looloo
www.dvd4arab.com

قيما بعد انه مات على ظهر السفينة قبل ان يصل الى المنفى فى كابين السفينة .. المنفى .. اليسوا قادرين على ان يسلموها الى العدالة كما قالوا ؟ هذا الدليل الذى يزعم برنار انه فى يده .. كذب لاشك .. مالم يكن قد عثر فى جيب المعطف القديم على تلك اللفافة المحتوية على السم .

* * *

عزمت تيريز على التأكد من الامر . اندفعت تتحسس مواقع اقدامها على السلم . كلما ارتفت صاعدة ازدادت الرؤية بسبب ضوء الفجر الذى بدأ ينير الزجاج العلوى .. هذه هى على ردهة الحاصل الاعلى ، تلك الخزانة التى علقت فى جوفها الملابس القديمة. انها ملابس عتيقة بالية ، ولكنها لاتعطى لاحد من المساكين لانها تنفع فى موسم الصيد . المعطف الباهت فى مكانه بجيبه العميق . كثيرا ماكانت العمة كلارا تدس فى هذا الجيب اشغال الابرة التى كانت تحكمها فى الزمن الماضى عندما كانت هى الاخرى تقبع فى المخابىء المنعزلة تنتظر مرور اسراب الحمام البرى . مدت تيريز يدها الى الجيب واخرجت منه اللفافة المختومة بالشمع :

كلوروفورم : ٣٠ جراما ـ اكونيتين مسحوق رقم ٢٠ ـ ديجيتالين محلول : ٢٠ جراما .

أعادت تيريز قراءة هذه الكلمات وهذه الارقام . هذا هو الموت انها كانت دائما تخاف من الموت . المهم فى الامر الا ينظر الانسان الى الموت مواجهة ، ويكفى ان يعد مايلزم لذلك من اعمال : ان يصب الماء وان يذيب فيه المسحوق وان يشرب ذلك دفعة واحدة وان يستلقى على الفراش وان يغلق عينيه . هذا كل مافى الامر ، ولا داعى للبحث عما وراء ذلك . لماذا الخوف من هذا الرقاد ؟ أليس شأنه كشأن أى رقاد آخر ؟ انها ترتجف ولكن ذلك من برودة الصباح المبكر . هبطت تيريز السلم وتوقفت امام الحجرة التى تنام فيها مارى . شخير الخادمة ينبعث منها كخوار الدواب . دفعت تيريز الباب فرات الضوء الباهت يتسلل من خلال النافذة . السرير الحديدى الصغير يشع بياضا وسط العتمة . قضتان دقيقتان موضوعتان على الغطاء وراس صغير يغوص فى الوسادة اللينة .

عرفت تيريز تلك الاذن الكبيرة : انها اذنها هى . ان الناس لعلى حق : هذه صورة منها هامده نائمة .

ـ انى ذاهبة .. ولكن هذه القطعة منى ستبقى ومعها ذلك القدر كله الذى سوف ينفذ حتى آخره من غير ان تفلت منه نبرة واحدة .

هل هى الطباع أم الميول أم هل هى قوانين الدم التى لاتحيد ولا تتحول ؟ لقد قرأت تيريز ان هناك من البؤساء الذين قتلهم اليأس من حمل أطفالهم الى الموت معهم ، وكان العقلاء من الناس يلقون بالجريدة جانبا وهم يتساءلون :

ـ كيف يمكن لمثل هذه الاشياء ان تحدث ؟ ..

اما تيريز فهى وحش ضار ، ولذلك شعرت فى قرارة نفسها ان هذا شىء جائز الوقوع وانه يكفى لحدوثه ان ... ركمت تيريز الى جوار الفراش الصغير وبشفتيها مست اليد الرقيقة المطروحة ادهشها شىء حار نبع من أعماق كيانها البعيدة وطفر الى عينيها وسال حارا كالجمر على خديها : بضع عبرات نائسة ! .. هى التى لم تبك ابدا .. !

نهضت تيريز والقت نظرة اخرى على الطفلة النائمة ثم ذهبت الى حجرتها . ملأت كوبا بالماء وازالت الشمع عن اللفافة ثم ترددت بين العلب الثلاث المحتوية على السم .

كانت النافذة مفتوحة . صياح الديكة كانه يمزق الضباب الذى احتجزت منه اشجار الصنوبر بين فروعها كتلا شفافة لامعة. الحقول يغمرها الفجر فتبدو مخضلة يانعة . كيف يمكن ترك هذا النور كله ؟ ماهو الموت ؟ لا احد يدرى ماهو الموت . تيريز ليست على ثقة تامة من الفناء . انها لاتدرى عن يقين هل فى عالم الفناء اناس يعيشون ؟ تيريز تكره لنفسها الشعور بهذه الرهبة ، وهى التى لم تتردد من قبل فى القذف بالآخرين الى جوف الفناء ، ها هى ذى الآن ترفضه وتثور عليه . كم يخجلها هذا الجبن من نفسها اذا كان موجودا هذا الكائن الأعلى ! .

تذكرت تيريز فى لحظة سريعة يوم عيد الغفران ، وذلك الرجل الوحيد الفارق فى المسوح الذهبية ، وذلك الشىء الذى يحمله بين يديه وشفتيه المتحركتين بالصلوات ومظهر الأذن والجبين البارزى

Looloo
www.dvd4arab.com

عليه .. مادام هذا الكائن الا على موجودا فليزح تلك اليد الآثمة قبل ان ينفذ السهم ويقضى الامر ... واذا كانت مشيئته ان تجتاز المعبر تلك النفس البائسة العمياء فليرض على الاقل ان يقبل فى حبه ورحمته ذلك الوحش الآدمى الذى هو خالقه . صبت تيريز فى الماء شيئا من الكلوروفورم ، فهى مادة ليس اسمها غريب عليها ، ولذا كانت اقل ارهابا لها فهى توحى بصورة من صور النوم . عليها ان تتعجل ، فقد اخذ اهل المنزل يستيقظون ! هاهى ذى الخادمة باليونت قد فتحت عوارض النافذة فى غرفة العمة كلارا . ماذا دهاها حتى تصرخ على هذا النحو للمرأة العمياء ؟ اليست ، بما توفر لها من عادة ، تستطيع ان تتفاهم معها على خير وجه عن طريق تحريك الشفاه وحدها ؟ اصوات ابواب تغلق وتفتح وخطوات سريعة متلاحقة هنا وهناك . اسرعت تيريز بالقاء رداء على المنضدة تخفى تحته علب السموم . دخلت باليونت عليها مولولة :

ماتت آنستى ! ... لقد وجدتها تلا حراك على فراشها ... بملابسها كاملة .. لقد انتشرت البرودة فى جسمها ..

* * *

على الرغم من كل شىء وضعوا مسبحة بين اصابع الزنديقة العجوز ووضعوا صليبا على صدرها . المزارعون يدخلون ويركعون ثم ينصرفون بعد ان يلقوا نظرة طويلة على وجه تيريز الواقفة الى جانب الفراش الذى به جثة العجوز . تعلهم يقولون :

ـ من يدرى ؟ ربما كانت هى التى قعلت هذه الفعلة ايضا .. !

ذهب برنار الى سانت كلير لابلاغ النبأ الى العائلة ولعمل الترتيبات اللازمة . وربما قال فى نفسه : لقد جاء هذا الحادث فى موعده لتحويل الانتباه عن الموضوع الاخر الخطير .. ! نظرت تيريز الى هذه الجثة .. هذه الجثة العتيقة المخلصة التى ركعت تحت قدميها فى الوقت الذى كانت على وشك ان تلقى بنفسها بين احضان الموت . هل هى الصدفة العمياء ؟ ام هل هو التوارد العجيب فى الخواطر ؟ او ان انسانا حدثها فى تلك اللحظة عن وجود ارادة ذاتية ، لهزت كتفيها استنكارا . يقول الناس بعضهم لبعض :

ـ هل رايتموها ؟ انها لا تتظاهر .. حتى مجرد التظاهر ..

بالبكاء ..

كانت تيريز فى ذلك الوقت تحادث من قلبها تلك التى لم يعد لها وجود :

ـ كيف يمكن الحياة لجثة هامدة بين يدى اولئك الذين يكرهونها .. ! كيف يمكن الا تحاول التطلع الى ماوراء ذلك .. !

فى الجنازة احتلت تيريز مكانها وقامت بدورها . وفى يوم الاحد التالى دخلت الى الكنيسة مع برنار الذى بدلا من ان يتسلل من جوانب الساحة كما هى عادته اخترق دهليزها الاوسط فى تعمد وتظاهر . لم ترفع تيريز عن وجهها قناعها الاسود الرقيق الا بعد ان جلست على مقعدها بين حماتها وزوجها . عمود منتصب يحجبها عن نظرات الحاضرين وليس امامها شىء غير هيكل الكنيسة ها هى ذى محاضرة من كل جانب ، الجمهور من خلفها وبرنار الى يمينها ومدام دى لاتراف الى يسارها وليس امامها الا هذا الطريق الوحيد .. الطريق السالك المفتوح .. كالحلبة امام الثور الهائج المندفع من وسط الظلام .. هذا الفضاء الفارغ حيث يقف رجل مسربل بالسواد بين طفلين وقد اراح ذراعيه قليلا واخذ يتمتم بكلام غير مسموع .

ـ ١١ ـ

فى المساء عاد برنار وتيريز الى ارجلوز فى بيت ديكويرو الذى ظل منذ سنوات فى حكم المهجور . المدافىء يتجمع فيها الدخان والنوافذ لا تغلق باحكام والرياح تمر مصفرة من تحت الابواب التى قرضتها الفئران . ولكن الخريف كان فى تلك السنة رحيما فلم تشك تيريز كثيرا من هذه المضايقات . عمليات الصيد تحتجز برنار كل يوم حتى المساء . وما ان يعود الى البيت حتى يذهب الى المطبخ ويتناول عشاءه مع باليون وزوجته ، بينما تيريز فى غرفتها تستمع الى صوت الملاعق والى اصوات الآكلين الرتيبة . ان الليل يقبل مسرعا فى اكتوبر . الكتب القليلة التى استقدمتها من البيوت المجاورة سبق لها ان قراتها فهى لا قيمة لها . برنار لم يستجب لطلبها بالحصول على بعض كتب من بوردو . لم يسمح لها الا بتجديد مؤونتها من السجائر فقط . كانت توقد النار فى المدفأة ولكن الدخان المحمل بعصارات الخشب والمرتد من المدفأة يحرق عينيها ويلهب

Looloo
www.dvd4arab.com

حلقها المصاب من الطبـاق . ما ان تذهب باليونت بقايا الطعـام القليل حتى تسارع تيريز الى اطفاء المصباح والذهاب الى الفراش. كم من الساعات ظلت هكذا ممده قبل ان يأتى النوم لانقاذها !... الصمت المخيم على ارجلوز يمنعها من النوم . انها تفضل عليه ليالى الزوابع والرياح . هذه الشكوى اللانهائية المتبعثة من قمم الاشجار تحمل اليها عذوبة صوت الآدميين . استسلمت تيريز لهذه الهدهدة فقد كانت الليالى المضطربة العاصفة تأتيها بالنوم خيرا من الليالى الهادئة الصامتة .

لم تكن تلك الامسيات الطويلة الحزينة لتمنع تيريز من العودة الى المنزل قبل وقت الغروب احيانا . فربما وقع لها ان زارت احدى الامهات وقد أمسكت فجأة بيد صغيرها عند مرور تيريز واسرعت به تدفعه دفعا الى داخل بيتها . وربما صادفها احد الرعاة فحيته باسمه الذى تعرفه من قبل ولم يرد لها تحيتها ... ماكان اسعدها لو انها ضاعت وغرقت وسط خضم الناس فى بلدة كثيرة السكان !. لم يعد يوجد فى ارجلوز راع واحد الا وعرف قصتها . انهم ينسبون اليها حتى موت العمة كلارا . لم يكن فى استطاعتها ان تخطو عتبة اى بيت ، وكان عليها ان تخرج من بيتها متسللة من خـلال باب خلفى وان تسير بعيدا عن بيوت القـرية . لولا تلك العربات المكومة على البعد لما استطاعت ان تلقى بنفسها فى الطريق الجانبى حيث كانت تهرول مسرعة وقد امتلأ قلبها وجلا كالفريسة المطاردة وتستلقى فى الاحراش هربا الى ان تمر احدى الدراجات المتسكعة .

ايام الآحاد فى كنيسـة سانت كلير لم تكن تيريز تشـعر بتلك الرهبة ولكن بشىء من الراحة والانفراج . يبدو ان رأى النـاس فى القرية قد بدأ يتحول قليلا الى جانبها . لم تكن تدرى ان اباها وان آل دى لاتراف قد دابوا على تصويرها فى هيئة الضحية البريئـة التى اصابتها ضربة قاتلة .

* * *

فى الليلة الاخيرة من اكتوبر هبت ريح عاتية قادمـة من المحيط فظلت تهز قمم الاشجار فى عنف ولزمن طويل .. استسلمت تيريز الى غفوة تشبه النوم وهى متنبهة الى اصوات الزوبعة الصاخية .

فى الصباح الباكر لم تكن تلك الاصوات هى التى ايقظتها . فتحت النافذة ولكن الحجرة ظلت معتمـة . المطر الرفيع الكثيف ينهمـر ويسيل على قرميد البيوت وعلى اوراق البلوط الفليظة . لم يغادر برنار البيت فى ذلك اليوم . اندفعت تيريز تدخن وتلقى بسيجارتها. ذهبت الى ردهة السلم فسمعت زوجها يتنقل من غرفة الى غرفة فى الطابق الاسفل . رائحة غليونه وصلت الى داخل غرفتها حيث تغلبت على رائحة سجايرها الخفيفة فعرفت فيها حياتها السابقة هذا هو اليوم الاول من فعل المطر والزوابع والاعاصير . كم قـدر لها ان تعيش الى جانب تلك المدفأة التى تموت فيها النار ؟ جوانب الغرفة تساقطت فيها اوراق الطلاء من فعل الرطوبة وعلى حوائطها مازالت ترى آثار الصور القديمة التى رفعها برنار من مكانها ليزين بها الصالون فى سانت كلير كما ترى المسامير الصدئة التى لم تعـد تحمل شيئا . على المدفأة فى داخل اطار مثلث الاجزاء من الصدف الرخيص ، تتجاور بعض الصور الفوتوغرافية الباهتة كما لو كان الموتى الممثلون فيها قد ماتوا هنا للمرة الثانية . هذا هو ابو برنار وجدته . وهذا هو برنار نفسه واضعا على رأسه قلنسوة البحارين عليها ان تعيش فى تلك الغرفة هذا اليوم بطوله وبعده اسابيع وبعد الاسابيع شهورا ..

عندما اقبل المساء لم تعد تيريز تطيق صبرا . فتحت البـاب ببطء ثم هبطت السلم ودخلت الى المطبخ . رات برنار جالسا على مقعد واطىء امام المدفأة واذا به فجأة ينتصب واقفا . توقف باليون عن تنظيف البندقية التى كانت فى يده ، اما زوجته باليونت فتركت شغل الابرة يسقط امامها على الارض . نظر اليهـا ثلاثتهم نظرة جعلتها تسأل :

هل انا اخيفكم ؟

— ان دخول المطبخ محظـور عليك .. الا تعلمين ذلك ؟ ..

لم تنبس ببنت شفه وكرت راجعة نحو الباب . ولـكن برنار استدعاها وقال لها :

— مادمت اراك الآن .. اود ان اخبرك ان وجودى هنا لم يعد له داع . لقـد استطعنـا ان نخلق فى سانت كلير حالة من الطمأنينة

Looloo
www.dvd4arab.com

عليك . انهم هناك يصدقون او يتظاهرون بالتصديق انك مصابة بشيء خفيف من مرض الاعصاب ، وانك تفضلين ان تعيشي بمفردك على ان احضر مرات عديدة لرؤيتك . منذ اليوم اعفيك من حضور القداس في الكنيسة ..

تمتمت قائلة انه ليس مما يضايقها بالمرة ان تذهب الى القداس ولكنه اجابها ان المهم ليس توفير اسباب السرور لها . بذلك تحقق له الغرض الذي يبتغيه فاضاف قائلا :

— وما دام القداس لا يعني شيئا بالنسبة لك ...

فتحت فمها تحاول الكلام ، ولكنها ظلت صامتة . اكد عليها رغبته في الا تتسرب منها كلمة او حركة قد تفسد هذا النجاح الذي امكن الوصول اليه بمثل هذه السرعة ، وعلى غير ماكان منتظرا . سالت عن صحة مارى فقال لها انها بخير وانها سترحل في اليوم التالي مع آن ومدام دى لاتراف الى بوليو . بل انه هو نفسه سيذهب الى تلك البلدة ليقضي فيها بضعة اسابيع ، شهرين على الاكثر . بعد ذلك فتح الباب وافسح الطريق امام تيريز .

في الصباح الباكر المعتم سمعت باليون بعد العربة كما سمعت صوت برنار لبرهة بعدها ، ووصل الى اذنها صهيل الجواد ثم كبكبة العربة وهي تبتعد . لاشيء بعد ذلك غير المطر المنهمر فوق القرميد وعلى النوافذ الملوثة بالضباب وعلى الحقول الخاوية وعلى مئات الكيلو مترات من اراضي اللاند والمستنقعات وعلى الكثبان الرملية المتحركة وعلى المحيط البعيد .

* * *

ظلت تيريز تشعل السيجارة من السيجارة التي انتهت من تدخينها ، وحوالى الساعة الرابعة ارتدت معطفا من الجلد واندست تحت المطر المتساقط ، ولكنها سرعان ماداخلها الرعب من الليل البهيم فعادت الى حجرتها . كانت النار قد خمدت في المدفأة ، واذ اخذتها رعدة البرد ذهبت الى فراشها . في الساعة السابعة صعدت اليها باليون بشيء من البيض المقلي على شريحة من لحم الخنزير ولكنها رفضت ان تتناول منها شيئا ولطول ما اكلت من هذا الشحم اصبحت تنفر من طعمه ومذاقه . لا شيء غير

الاطعمة المحفوظة ولحم الخنزير الجاف ! .. قالت باليون ان ليس لديها ماتقدمه لها خيرا من هذا ، وان برنار قد منع عنها الدواجن . شكت باليون من ان تيريز تضطرها الى الصعود والنزول من غير فائدة ، وهي التي تشكو من مرض في القلب ومن انتفاخ في الساقين .. قالت ان هذا العمل كثير عليها ومرهق لها ولولا خاطر السيد برنار لما استمرت في القيام به .

انتابت تيريز الحمى في تلك الليلة . ولكن الحمى لم تؤثر على ذهنها الواعي فاخذت تتخيل حياتها في باريس . رات نفسها في ذلك المطعم القائم وسط الغابة والذي ذهبت اليه من قبل ولكنها هذه المرة ليست مع برنار ، وانما مع جان ازبيدو وسرب من الشابات . ها هي ذي تضع علبة سجائرها على المنضدة وتشعل منها واحدة فاخرة وتنطلق تتحدث عن خلجات قلبها واسراره بينما الموسيقى تعزف الانغام المكتومة الخافتة . انها تبهر بحديثها فريقا من الوجوه المنصتة لها من غير ان تثير فيها الدهشة . ها هي ذي امراة تقول :

— انك مثلي .. لقد احسست بذلك انا ايضا .

وهذا رجل من رجال الادب ينحني بها ناحية ويسر في اذنها :

— يجدر بك ان تكتبي كل ما يدور في داخلك ونحن على استعداد لنشر هذه المذكرات عن امراة من نساء اليوم في مجلتنا .

وهذا شاب موله بها يعيدها في سيارته الى حيث تقيم . ان السيارة تدرج بها صاعدة في طريق الغابة . لا تشعر باي وجل وانما هي تستمتع بوجود هذا الجسم الشاب المضطرب جالسا الى يسارها . انها تقول له :

— لا ، ليس هذا المساء . اني اتعشى الليلة مع صديقة لي .

فيجيبها :

— ومساء غد فتقول :

— ... ولا مساء غد

فيرد عليها يائسا :

— هكذا .. امسياتك كلها مشغولة ؟ ..

فتقول في دلال :

— تقريبا .. يعني .. ابدا ...

Looloo
www.dvd4arab.com

تخيلت ان هناك شخصا فى حياتها هو الذى جعل كل شىء آخر فى الدنيا لا معنى له ، شخصا لايعرفه احد ممن يحيطون بها ، انسانا متواضعا مجهولا تعلق به وجودها . ان تيريز لاتعيش الا فى ضوء تلك الشمس التى لاتراها الا عيناها ولا يشعر بحرارتها الا جسدها وحده . هاهى ذى باريس تطن وتصخب كما تفعل الرياح فى أشجار الصنوبر . هذا الجسد الملتصق بجسدها خفيفا لطيفا الى اقصى حد يحول بينها وبين التنفس المنطلق ، انها تود لو ضاعت منها انفاسها ولا تبتعد عنه . ارادت تيريز فى حلمها ان تحتضن هذا الطيف الذى صوره لها الخيال فمدت يدها اليمنى تضغط بها على كتفها اليسرى وانفرزت اظافر يدها اليسرى فى كتفها اليمنى .

قامت من فراشها حافية القدمين وفتحت النافذة . ليس فى الظلام برودة ولكن هل يمكن ان تتصور ان المطر قد يكف عن السقوط فى يوم من الايام ؟ ستمطر الدنيا حتى اليوم الذى ينتهى فيه العالم .. لو كان معهاشىء من النقود لفرت الى باريس ولذهبت مباشرة الى جان ازيفيدو واسلمت اليه زمامها . سيجد لها عملا . هل يتاح لها ان تصبح امراة بمفردها فى باريس تكسب عيشها بنفسها ولا تعتمد على احد .. ؟ هل يتاح لها ان تتجرد من روابط الاسرة وان تعهد الى قلبها وحده بمهمة اختيار ذوى قرباها ، ليس أولئك الذين تربطها بهم رابطة الدم ، وانما الذين تربطها بهم رابطة القلب ورابطة الجسد ايضا ؟. هل يتاح لها ان تتعرف على اقاربها الحقيقيين مهما كانوا قلة ، ومهما كانوا مشتتين .. ؟ غليها النوم فى نهاية الامر والنافذة مفتوحة . لم تلبث ان ايقظتها برودة الفجر فوجدت اسنانها تصطك وقد هربت منها القدرة على الوقوف واغلاق النافذة بل وعلى مد ذراعها وجذب الغطاء عليها .

* * *

لم تغادر فراشها فى ذلك اليوم ولم تغتسل . اكتفت بتناول بضع لقيمات من الطعام وبشرب شىء من القهوة لكى تستطيع التدخين فقد اصبحت معدتها لاتتحمل الدخان على فراغ . حاولت ان تستعيد التخيلات التى راودتها فى الليل ، على ان ارجلوز قد خلت تماما من كل صوت واصبحت فيها فترة مابعد الظهر لاتقل

ظلاما عن الليل . فى تلك الايام التى تعتبر اقصر ايام السنة تعمل الامطار الكثيفة على توحيد الزمن وعلى ادماج الساعات بعضها ببعض . فى تلك الايام تتابع الشمس طلوعها وغروبها فى صمت وترتيب ثقيل . لم تكن لتيريز رغبة فى النوم فكانت احلامها لذلك اكثر دقة ووضوحا . اخذت تبحث فى ماضيها عن الوجوه التى نسيتها وعن الافواه التى احبتها عن بعد وعن الاجساد المبهمة التى وصلت مابينها وبين جسدها ، المقابلات العارضة واحلام اليقظة الليلية . كانت تخترع لنفسها سعادة لا وجود لها وهناء وهميا كانت تخلق لنفسها من لاشىء غراما مستحيلا .

بعد بضعة ايام قالت باليونت لزوجها باليون :

— انها لاتغادر فراشها ابدا وتترك طعامها وخبزها لا تمسه . على انى اقسم لك انها تفرغ زجاجتها الى آخرها . مهما اعطيتها من الشراب ، هذه الشقية ، شربته وطلبت المزيد . وبعد ذلك احرقت اغطية الفراش بسيجارتها . سينتهى بها الامر حتما الى احداث حريق . انها تدخن الى حد ان اصبحت اصابعها واظافرها صفراء كما لو كانت قد غمستها فى الكركم . يا للخسارة .. ! تلك الاغطية التى نسجت باليد خصيصا .. ! لاتنتظرى منى أن ابدلها لك كثيرا ..

قالت الخادم العجوز ايضا انها مستعدة دائما لتنظيف الغرفة وترتيب الفراش فهى مارفضت ذلك قط ، ولكنها تلك الكسولة التى لاتريد الخروج من بين الاغطية . لم تعد باليونت تجد ضرورة لحمل اوعية الماء الساخن فى كل صباح والصعود بها مع مافى ساقيها من انتفاخ واوجاع فقد كانت تجدها كما هى فى المساء عند باب الغرفة حيث تركتها من قبل .

اخذت تيريز تنفصل بمخيلتها عن هذا الجسد المجهول الذى اخترعته من اجل سعادتها . لقد سئمت هذا الهناء وشعرت بالشبع من هذا السرور الوهمى فراحت تؤلف فى ذهنها وسيلة اخرى للانطلاق . هاهم اناس كثيرون راكعون حول فراشها الحقير وها هو ذا طفل من ارجلوز — واحد من أولئك الاطفال الذين كانوا يفرون عند اقترابها منهم — محمولا على الايدى يدخلونه عليها فى غرفتها وهو فى النزع الاخير . ما ان تضع تيريز عليه يدها التى

Looloo
www.dvd4arab.com

كساها النيكوتين اصفرارا الا وينهض الطفل سليما معافا . راحة بعد ذلك تؤلف لنفسها خيالات اكثر تواضعا من هذا . ها هى ذى تعد لنفسها بيتا على شاطىء البحر . انها ترى فى حلمها الحديقة والشرفة وتنظم الحجرات وتتخير كل قطعة من قطع الاثاث ، وتبحث عن المكان المناسب لتضع فيه مالديها من اثاث فى سانت كلير . انها تناقش نفسها فى اختيار القماش والالوان . لايلبث هذا الزخرف ان يتلاشى وان يتوه فى الضباب فلا يبقى منه غير عريشة فوق مقعد فى مواجهة البحر . هاهى ذى تيريز جالسة تسند راسها الى كتف. هاهى ذى تنهض عند سماع الجرس المؤذن بحلول وقت الطعام. انها تسير تحت الخميلة المظلمة . شخص ما يسير الى جوارها وفجاة يحتضنها بين ذراعيه ويجذبها اليه . تخيلت تيريز ان القبلة قادرة على وقف سريان الزمن وان فى الحب لحظات لا نهاية لها . انها تتخيل ذلك ولن تعرفه ابدا . ها هو ذا المنزل الابيض الناصع يبدو ثانية امام نظرها وهاهى ذى البئر وقد اخذت رافعته تئن وتصرخ . ازهار الهليوتروب الندية تملأ الفراغ بعبيقها . سوف يكون العشاء فترة هجوع وراحة قبل الهناء المنتظر فى المساء والليل ، هذا الهناء الذى لايمكن النظر اليه مواجهة لما فيه من قوة تطغى على مافى القلب من قوى واثقال . هذا هو الحب الذى حرمت منه تيريز اكثر مما حرم منه اى مخلوق آخر . لقد استولى عليها هذا الحب ونفذ الى قرارة كيانها كله . سمعت تيريز او كادت ، وهى فى غمرة هذا الشعور اللذيذ ، صراخ بالبونت . ماذا تقول هذه العجوز الشمطاء ؟ ان مسيو برنار سوف يصل من الجنوب فى يوم او فى آخر من غير اخطار سابق .

ـ فما الذى سوف يقوله عندما يرى تلك الحجرة ؟ انها حقا كحظيرة الخنازير .

جلست تيريز على حافة فراشها ونظرت فى رعب الى ساقيها الهيكليتين . ان قدميها تبدوان فظيعتين . لفتها بالبونت فى رداء كثيف ودفعتها الى احد المقاعد .. بحثت بالقرب منها عن سجائرها ولكن يدها سقطت اعياء فى الفضاء . شعاع بارد من اشعة الشمس يدخل من فجوة النافذة المفتوحة . بالبونت تتحرك جاهدة وفى يدها

مكنسة . انها تلهث وتتمتم بالسباب واللعنات . هذه هى بالبونت. انها مع ذلك طيبة القلب رحيمة . الم يذكر عنها افراد العائلة انها فى كل عيد من اعياد الميلاد تذرف الدمع سخينا عندما يذبح الخنزير الذى قضت الايام فى تسمينه ؟ انها اليوم حانقة اشد الحنق على تيريز لانها لاترد عليها . ان الصمت فى نظرها يعتبر من الاهانات الكبرى ، انه علامة من علامات الاحتكار .

ولكن تيريز لم تكن قادرة على الكلام ولم يكن صمتها بارادتها .

وعندما شعرت حول جسمها بنضارة الملاءات النظيفة ظنت انها قالت كلمة الشكر والامتنان ، ولكن صوتا ما فى الواقع لم يخرج من بين شفتيها . قالت لها بالبونت فى خشونة وهى تنصرف :

ـ هذه الملاءات .. لن تحرقيها بعد اليوم ..

خشيت تيريز أن تكون الخادمة قد اخذت منها سجائرها فمدت يدها الى المنضدة تتحسسها . لم تكن السجائر فى مكانها . كيف لها ان تحيا من غير ان تدخن ؟ كان لزاما عليها الا تكف اصابعها عن مس هذا الشىء الصغير الجاف الملتهب ، وكان لزاما عليها بعد ذلك ان تشم الى مالا نهاية رائحة هذا الضباب الذى يملأ الغرفة والذى مصه فمها ثم عاد فلفظه . لن تصعد اليها بالبونت الا فى المساء . ليس امامها الا ان تقضى فترة ما بعد الظهر كلها بلا تدخين. اغلقت عينيها ؛ بينما اصابعها المصفرة لم تكف عن حركتها المعتادة حول السيجارة التى لا وجود لها .

فى الساعة السابعة دخلت بالبونت وفى يدها شمعة . ووضعت على المنضدة اوعية اللبن والقهوة وقطعة من الخبز ثم قالت :

ـ ألست بحاجة الى شىء آخر .. ؟

توقفت فى خبث ان تطالبها تيريز بسجائرها . ولكن تيريز لم تحول وجهها عن الحائط الذى التصق به .

لا شك ان بالبونت قد اهملت احكام غلق النافذة ، اذ انفتحت بفعل هبه من هبات الريح فانسابت برودة الليل الى الغرفة وملأتها لم تجد تيريز فى نفسها من القوة مايمكنها من ان تدفع عنها الأغطية وتهب جارية حافية القدمين الى النافذة لتغلقها ، انكمشت بجسمها

Looloo
www.dvd4arab.com

وجذبت الغطاء حتى عينيها وظلت ساكنة تتلقى الهواء القارص على جفنيها وعلى جبهتها . كانت الاصوات الهائلة المنبعثة من اشجار الصوبر تملأ ارجلوز كلها ، ولكن على الرغم من هذا الهدير الذى يشبه هدير المحيط كان الصمت هو كما هو ، صمت ارجلوز الرهيب . قالت تيريز لنفسها ، انها لو كانت تحب الالم حقيقة لما اندست الى هذا الحد تحت اغطيتها . حاولت ان تزيح هذه الاغطية عنها قليلا ، ولكنها لم تتحمل التعرض لهذا الصقيع غير ثوان قليلة ، بعد ذلك نجحت فى هذه المحاولة لمدة اطول كما لو كانت فى لعبة تمارسها . وهكذا من غير ان تركز على الأمر ارادتها الواعية اصبحت آلامها تسليتها وعزاءها الوحيد ومن يدرى ؟ ربما صارت هذه الآلام سبب بقائها فى هذا الوجود .

— ١٢ —

— خطاب من سيدى .

لم تمد تيريز يدها لتناول الخطاب الذى تقدمه لها بالبونت فعادت الخادمة تقول فى اصرار ان سيدها يخطرها دائما بقدومه وانها تريد ان تتأكد لتبدأ فى اعداد كل شىء :

— لو سمحت لى سيدتى بان اقرأ ...

قالت تيريز :

— اقرئى ... اقرئى ...

ثم تحولت بوجهها الى الحائط كما كانت تفعل دائما فى حضرة الخادمة . ولكن العبارات التى كانت تلفظها بالبونت بصعوبة اخرجتها فجأة من سباتها :

— سرنى أن أعلم من التقارير التى يرسلها لى باليون ان كل شىء يسير على خير وجه فى ارجلوز ..

كان برنار ينبىء بانه سوف يعود بطريق البر ولكنه نظرا لانه قد يتوقف فى مدن عديدة فهو لايحدد بالضبط تاريخ وصوله ..

— .. لن يكون ذلك بعد يوم ٢٠ من ديسمبر بحال . لا تعجبوا اذا ماهبطت عليكم فجأة ومعى آن وابن ديجلهيم . لقد اعلنا خطوبتهما فى يوليو ولكن الامر لم يصبح رسميا بعد . ان ابن ديجلهيم يتمسك بضرورة رؤيتك قبل ذلك ، وهو يؤكد ان ذلك من

باب اللياقة ليس الا . اما انا فاعتقادى هو انه يريد ان يكون لنفسه رأيا حول ما انت به ادرى . لك من الذكاء مايكفى للخروج بكرامتك سليمة من هذا الاختبار العسير . تذكرى انك مريضة وان روحك المعنوية منهارة . انى على كل حال اعتمد عليك فى ذلك ، وساعرف كيف اقدر ماتبذلينه من جهد لعدم الاضرار بهناء آن ولعدم افساد هذا المشروع الذى يحقق مصلحة العائلة من كافة الوجوه . كذلك لن اترددعند اللزوم فى معاقبتك عقابا صارما عن كل محاولة تخريبية تصدر منك . على انى على يقين من انه لايوجد مايخشى منه من هذه الناحية .

كان اليوم جميلا صافيا باردا . نهضت تيريز مستسلمة لاوامر باليونت واستندت الى ذراعه لتسير بضع خطوات فى الحديقة ، ولكنها لم تستطع الانتهاء من اكل صدر الدجاجة الذى قدمته لها الا بصعوبة كبيرة . عشرة ايام باقية قبل ان يحل يوم ٢٠ من ديسمبر ، فكرت باليونت لو ان سيدتها قبلت ان تحرك جسمها قليلا لكان فى ذلك مايكفى لتسترد قوتها عند حلول التاريخ المنتظر . قالت الخامة لباليون زوجها :

— لا يمكن القول انها تعاند فى ذلك او تصدر عن نية سيئة ، انها تحاول الى اقصى ما يمكنها . ان سيدى برنار خبير بوسائل تدريب الكلاب العنيدة وتأديبها . انت تعرف طبعا كيف تتحول هذه الكلاب عندما يضع فى عنقها السلاسل والاغلال . لم يتطلب منه امر زوجته هذه وقتا طويلا ليحولها الى مايشبه الكلبة الهادئة المطيعة . ولكنه يفعل خيرا الا يفتر بهذا المظهر الخداع ..

ذلك ان تيريز شرعت فعلا تبذل جهدها للتخلص من الاحلام ومن الغفوات ومن الغثاء . كانت تكلف نفسها مشقة السير والاكل وخصوصا مشقة استعادة ذهنها وتفكيرها والنظر بعينى راسها الى حقائق الاشياء والاشخاص . انها تعود الى الارض التى اشعلت هى نفسها النيران فيها ، تعود لتطأ باقدامها رمادها ولتسير بين صنوبراتها المحترقة السوداء . سوف تحاول ان تتكلم وان تبتسم فى وسط هذه العائلة .. عائلتها .

* * *

Looloo
www.dvd4arab.com

١٨ من ديسمبر حوالى الساعة الثالثة - السماء ملبدة بالغيوم مر غير ان يتساقط منها مطر . تيريز جالسة امام المدفأة المشتعلة فى غرفتها وقد احنت راسها تسندها الى متكأ المقعد واغمضت عينيها . استيقظت على صوت (كركرة) محرك السيارة ، وعرفت صوت برنار فى ردهة المنزل . سمعت ايضا صوت مدام دى لاتراف ، وحينما اقبلت باليونت اللاهثة تربح الباب من غير ان تدق عليه ، كانت تيريز واقفة على قدميها امام المرآة . كانت تضع الطلاء الاحمر على شفتيها وعلى خديها وهى تقول :

— يجب على الا ابدو مخيفة فى نظر هذا الشاب ..

اخطأ برنار بعدم مبادرته الى الصعود فورا الى غرفة زوجته . قال ابن ديجليهم لنفسه وكان قد وعد والديه بانه لن يحتفظ بعينيه فى جيبه :

— ان اقل مايقال عن ذلك انه عدم اكتراث وفى ذلك مافيه مما يستحق التفكير ..

ابتعد قليلا عن آن ورفع حافة معطفه المصنوعة من الفرو وهو يقول :

— لا جدوى من محاولة تدفئة حجرات تلك البيوت الريفية

ثم سأل برنار :

— اليس لديكم كهف فى اسفل البيت ؟ اذن ستكون ارضياتكم دائما عرضة للتعفن والتآكل مالم تضعوا تحتها فرشة من الاسمنت .

كانت آن دى لاتراف ترتدى معطفا من الفرو وقبعة من الصوف لا اشرطة فيها ولا حلية . وكانت مدام دى لاتراف تقول عن هذه القبعة انها من غير اى شىء يزينها تتكلف اكثر من قبعاتنا فى العهد الماضى ، مع كل ماكان يعلوها من ريش واعواد ، على أن هذا الصوف فى حد ذاته جميل للغاية ، لقد اشتريناه من لايهاك ، وصممت القبعة على احدث موديلات ريبو . جلست مدام دى لاتراف تعرض حذاءها للنار ، وقد اتجهت بوجهها القاسى الشاحب ناحية الباب . لقد وعدت برنار بان تكون على مستوى الاحداث والظروف . من ذلك انها انذرته قائلة :

— لاتطلب منى ان اقبلها فهذا امر لايليق بك ان تكلف به امك .

يكفينى .. يكفينى قسوة ان المس يدها . هل تعلم ؟ يا الاهى ! ما افظع الفعلة التى اقترفتها . على ان ذلك ليس هو كل مايتفرنى منها .. فقد عرف ان هناك اناسا يستطيعون الاقدام على القتل .. ولكنه مكرها وخبثها .. هذا شىء مخيف لايطاق . هل تذكر قولها لى :

— يا امى ، خذى هذا المقعد ستكونين فيه اكثر راحة ..

بل هل تذكر عندما كانت لاتخشى ان توجه اليك ضربتها ، ومع ذلك تقول :

— .. هذا المسكين العزيز يخشى الموت .. لو اجتمع حوله الاطباء للتشاور لمات لساعته رعبا ..

الله وكيلى ، اننى لم اكن اشك فى شىء فى ذلك الوقت ، ولكن كلمة « هذا المسكين العزيز » بالطريقة التى نطقتها بها قد اثارت لدى دهشة ..

لم يكن يهم مدام دى لاتراف فى تلك اللحظة وهى جالسة فى صالون ارجلوز غير الحرج الذى يشعر به الموجودون جميعا ، فاخذت تراقب نظرات ابن ديجليهم الفاحصة المدققة ، كانها اعين الصقر ، يركزها على برنار . قالت :

— يا برنار ، يجب عليك ان تذهب لترى ما الذى تصنعه تيريز .. ربما تكون مريضة او لعلها تشكو من شىء ..

كانت آن ، وقد انصرفت عن كل شىء وكانها لم تعد تهتم لما قد يحصل ، اول من تعرف على الخطوات المألوفة لها من قبل ، فقالت :

— انى اسمع خطواتها ، هى هابطة على السلم .

وضع برنار يده على قلبه الذى شعر فيه بالخفقان والدق العنيف . ياله من غبى ! لماذا لم يسبق هو الى الحضور منذ الامس اذن لاستطاع ان يصفى الامر مع تيريز . ما الذى سوف تقوله ؟ ان لها لمن القدرة على افساد كل شىء من غير ان توقع نفسها تحت طائلة اى عتب . واذ كانت خطواتها على السلم بطيئة ، كان الجميع وقوفا متجهين بنظرهم الى الباب الذى فتحته تيريز فى نهاية الامر .

Looloo
www.dvd4arab.com

سوف يتذكر برنار بعد ذلك بسنوات عديدة ، انه عند اقتراب هذا الجسم الناحل المحطم وهذا الوجه الصغير الشاحب المطلى بالمساحيق فكر فى اول الامر فى محكمة الجنايات . ولكن تفكيره هذا لم يكن سببه الجريمة التى اقترفتها تيريز ، وانما الخاطر السريع الذى مر بذهنه واعاد الى ذاكرته تلك الصورة الملونة المقتطعة من جريدة البيتى بارزيان والتى تزين مع غيرها من الصور الكثيرة مثيلاتها الحوائط الخشبية لبيت الخلاء المقام فى حديقة ارجلوز . لطالما توقفت عيناه وهو صبى ، بينما كان الذباب يطن والحشرات تئز فى الخارج من حرارة القيظ على تلك الصورة التى يختلط فيها اللون الاحمر باللون الاخضر والتى تمثل « سجينة بواتييه » .

هذه الصورة عادت الى مخيلته فى تلك اللحظة وهو ينظر الى تيريز وقد جف منها الدم وزال منها اللحم . شعر انه كان مجنونا حقا حينما قرر الا يبعد عنه باى ثمن هذه المرأة الخطيرة كما يلقى فى الماء بالقنبلة التى يخشى من انفجارها ما بين ثانية واخرى . ان تيريز سواءاسلم هوبذلك ام لم يسلم ستظل تثير ذكرى الفاجعة ، بل وما هواسوأ من الفاجعة ، ستظل تثيرالقيل والقال فى كل مكان ، فهى لابد ان تكون اما مجرمة آثمة واما ضحية مظلومة .. بدت ملامح الدهشة على وجوه الجميع وارتسمت فيها علامات الشفقة والاسى التى لاتظاهر فيها ولا خبث حتى ان ابن ديجلهيم لم يعد يدرى اى حكم يصدره وشاع التردد فى افكاره . قالت تيريز :

— الامر فى غاية البساطة . لقد حال سوء الطقس بينى وبين الخروج من المنزل وبذلك فقدت شهية الطعام . لم يكن يدخل جوفى شىء من الطعام تقريبا . على كل حال الرفع خير من السمنة .. ولكن لنتكلم عنك انت يا آن .. انى سعيدة لك ..

تناولت يدى آن الواقفة امامها بين يديها جالسة واخذت تتفرس فى وجهها . عرفت آن فى ذلك الوجه الذى كساه الشحوب والاعياء تلك العينين اللتين طالما حدقتا فيها من قبل فى اصرار مثير . تذكرت انها كثيرا ماقالت لها وهى ترنو اليها طويلا بهاتين العينين :

— هل لك أن تكفى عن النظر الى هكذا ؟ .

— انى مسرورة لهنائك يا صغيرتى آن .

رسمت على شفتيها ابتسامة قصيرة تحيى بها « سعادة آن » وخطيبها ابن ديجلهيم براسه الاصلع الكبير وشواربه المتنفشة كشوارب رجل الشرطة وكتفية الساقطتين وسترته وساقيه القصيرتين الممتلئتين تحت سراويله المخططة بالرمادى والاسود . انه على كل حال رجل كسائر الرجال .. زوج كسائر الازواج . ثم عادت تركز عينيها على آن وقالت :

— اخلعى قبعتك ... آه ... هكذا ... لقد عرفتك الآن يا عزيزتى ..

هنا رأت آن عن قرب ذلك الفم الساخر وتلك العينين الجامدتين دائما اللتين لم تجر منهما الدموع ابدا . ولكنها لم تكن تدرى مايجول فى خاطر تيريز . قال ابن ديجلهيم ان الشتاء فى الريف ليس كثير المضايقة بالنسبة الى المرأة التى تحب بيتها . فهناك دائما الكثير من الاعمال المنزلية التى تقضى فيها وقتها .

قالت آن :

— هلا سألتنى عن اخبار مارى ؟

— صحيح ... كلمينى عن مارى ...

عادت الشكوك وعاد الحذر الى قلب آن . انها منذ شهور تكرر القول بنفس اللهجة التى تتكلم بها امها :

— انى قد اغتفر لها كل جرم لانها ، مهما كان الامر ، مريضة لاتحكم تصرفاتها . ولكن تغاضيها عن مارى ونسيانها لها ! .. هذا عيب لا اطيقه . ام لاتهتم بشئون طفلها .. ؟ قد يمكن اختلاق كافة المعاذير والحجج ، ولكن امرا كهذا هو فى نظرى الدناءة نفسها .

قرأت تيريز مايجول بخاطر الشابة فقالت لنفسها :

— انها تحتقرنى لانى لم ابدا بالكلام معها عن مارى . ولكن كيف لى أن يستريح لها حالى ؟ انها لم تفهم ابدا انى مشغولة بنفسى وان اكيانى كله مملوء بى . اما آن فهى لاتتمنى الا أن تنجب اطفالا لتغنى فيهم ولهم ، كما فعلت امها من قبل وكما تفعل جميع نساء العائلة الآن . انا فى حاجة دائما لان التقى بذاتى . انى اجهد جسمى وعقلى فى التعرف على نفسى واللحاق بها . سوف تنسى آن مراهقتها

Looloo
www.dvd4arab.com

التى قضتها فى احضانى وستنسى غرام جان ازيفيدو عندما تسمع الصرخة الاولى للوليد الذى سيحملها اياه هذا القزم من قبل أن يخلع سترته . ان نساء العائلة يسعين الى فقدان حياتهن الفردية كلها . انه لشىء جميل حقا هذا التفانى الكامل فى خدمة الجنس وصيانته . انى أقدر ، مافى هذه التضحية ، ما فى هذا الفناء من جمال ... اما انا ... اما انا ....

حاولت الا تصغى الى مايقولون وان تفكر فى آن . لابد انها بدأت تتكلم الآن .

— قد يطربنى صوتها بضع ثوان ... ربما ... ولكنها بعد ذلك مباشرة ستثير فى الملل ويفرغ صبرى للعودة الى الوحدة مع نفسى ...

سألت آن :

— اظنها تتكلم جيدا الآن ، مارى ؟

— انها تعيد كل مايقال لها . كم هى مضحكة فى ذلك ! يكفى أن تسمع صوت احد الديكة او نفير احدى السيارات لترفع اصبعها الدقيق وتقول فى لغة الاطفال الحلوة

— هل تسمع الموسيقى ؟

انها ظريفة جدا ! انها رائعة ..

قالت تيريز فى نفسها :

— يجب أن اصغى الى مايقولون . ان راسى فارغ . ماذا يقول ابن ديجلهيم ؟

— بذلت جهدا كبيرا واسترقت السمع :

— فى املاكى الكائنة ببلدة باليزاك لايعمل جامعو عصارة الاشجار فى نشاط كنشاط زملائهم هنا . انهم يحصلون على اربع جمعات بينما فلاحو ارجلوز يحصلون على سبع او ثمان .

— هل يحق لهم وثمن العصارة على ماهو عليه ان يكونوا على هذا التكاسل والتراخى ؟

— هل تعلم أن من جامعى العصارة فى الوقت الحاضر من يحصل على مائة فرنك اجرا فى اليوم الواحد ! ..

اظن اننا نتعب مدام ديكويرو ..

كانت تيريز تستند برأسها الى حافة المقعد . نهض الجميع وقوفا . اعلن برنار انه لايعود الى سانت كلير فقبل ديجلهيم ان يرجع بالسيارة التى سوف يعيدها السائق فى اليوم التالى الى ارجلوز وبها حقائب برنار . حاولت تيريز أن تنهض فى جهد فمنعتها حماتها من ذلك .

اغلقت عينيها وسمعت برنار يخاطب مدام دى لاتراف فيقول :

— ان باليون هذا وزوجته ..! يالهما .. سأريهما من أين تؤكل الكتف .. سيشعران ببطشى وغضبى ..

وترد عليه امه قائلة :

— حذار ! لاتفال كثيرا . يجب الا يذهبا ، فهما يعرفان من الاسرار الكثير ثم فيما يتعلق بالاملاك .. ليس غير باليون من يعرف الحدود كلها حق المعرفة ..

ردت مدام دى لاتراف على ملاحظة ابداها برنار ولم تسمعها تيريز قالت :

— على كل حال كن حذرا — لاتامن لها كثيرا — راقب حركاتها وسكناتها . لاتتركها تدخل بمفردها الى المطبخ ولا الى حجرة الطعام ... لا ... انها ليست مفمى عليها . انها نائمة او لعلها متظاهرة بالنوم

فتحت تيريز عينيها . ها هو برنار واقف امامها وقد مد يده بكوب :

— ابلعى هذا . انه نبيذ من اسبانيا له قدرة كبيرة على التنبيه والافاقة .

ولما كان من عادته أن ينفذ كل ماعتزم ان يعمله فقد دخل الى المطبخ وانفجر غاضبا . سمعت تيريز احتجاجات باليونت الصارخة يلفتها الدارجة وقالت فى نفسها :

— لقد خاف برنار من شىء .. هذا ظاهر ممن خاف ؟ ..

عاد برنار اليها وقال لها :

— اعتقد ان شهيتك للطعام ستزداد فى حجرة الطعام عنها فى غرفتك .. لقد اعطيت التعليمات لكى تعد المائدة كما كان الحال فى الماضى .

Looloo
www.dvd4arab.com

وجدت تيريز فى برنار الشخص الذى عرفته فى أيام الدراسة ، ذلك الحليف الذى يريد أن يخرجها من المأزق أيا كان الثمن .. ها هو يريدها ان تشقى مهما كلف ذلك . طبعا لقد انتابه الخوف فى فترة ما . نظرت اليه تيريز وهو جالس أمامها يقلب جمرات المدفأة ، ولكنها لا ترى الصورة التى تراها عيناه الكبيرتان مرتسمة وسط اللهب . انها تلك الصورة الملونة بالاحمر والاخضر والمقتطعة من جريدة البيتى بارزيان : صورة سجينة بواتيه .

مهما امطرت السماء فى ارجلوز لا تحتجز ارضها الرملية شيئا من برك الماء . ويكفى فى قلب الشتاء ان تشرق الشمس لمدة ساعة واحدة لكى يستطيع المرء ان يسير بحذائه العادى على الطرقات الطرية الجافة المكسوة بالصقيع من غير ان يخشى البلل . كان برنار يمارس الصيد طوال اليوم مع محافظته على الحضور فى اوقات الطعام وكان يستفهم من تيريز عن صحتها وعن حالها ، ويبذل لها من العناية مالم يبذله لها من قبل . زالت الكلفة او كادت ، وزال الحرج من علاقتهما . كان يجبرها على أن تزن نفسها مرة كل ثلاثة أيام وعلى الا تدخن الا سيجارتين فقط بعدكل وجبة . اقبلت تيريز بناء على نصيحة برنار على الاكثار من المشى فقد قال لها .

— ان الحركة والتمرين هما خير الوسائل لفتح الشهية .

لم تعد تخشى شيئا فى ارجلوز . اصبح يبدو لها أن اشجار الصنوبر تتفرق من حولها وتفتح لها صفوفها وتشير اليها ، ان انطلقى واذهبى الى حيث تشائين . فى احدى الامسيات قال لها برنار :

— انى اطلب منك ان تنتظرى الى أن يتم زواج آن اذ يجب ان يرانا اهل القرية جميعا مرة اخرى معا . بعد ذلك ستكونين حرة .

فى الليلة التى تلت هذا الحديث لم تستطع النوم فقد ظلت عيناها مفتوحتين يشد عليهما سرور يخالطه القلق .. سمعت فى الفجر اصوات الديكة التى لاعداد لها والتى يبدو انها لا تتجاوب فى صياحها : انها تصيح معا فتملأ الارض والسماء ضجيجا متواصلا ها هو برنار سيتركها طليقة فى الدنيا كما سبق له من قبل ان اطلق فى البرية انثى الخنزير الوحشى التى لم يستطع ترويضها . بعد

أن تتزوج آن أخيرا سيقول الناس ماشاء لهم القول ما دام برنار سيأخذها من يدها الى وسط باريس ويلقيها فى الخضم ثم يفر هاربا . هذا ما اتفقوا عليه . لاطلاق ولا انفصال رسمى . سيخترعان سببا مناسبا لاسكات الناس وقطع السنتهم ، الصحة مثلا ، فهى لا تشعر بالتحسن فى حالها الا فى السفر . سيدفع لها بانتظام عائد العصارة الناتجة من اشجارها عند حلول عيد القديسين من كل سنة .

لم يكن برنار يناقش تيريز فى شىء من مشروعاته ، افهمها ان فى استطاعتها ان تذهب الى الحجيم اذا شاءت . قال لامه يوما :

— لن اهدأ الا بعد أن ترحل عن هذا المكان ولا بد ان تعود الى استعمال الاسم الذى كان لها قبل الزواج .. هذا لايمنع ، على كل حال ، اذا ماحاولت أن تركب راسها ، من ان نتقابل مرة اخرى .

ولكنه مع ذلك كان يقول مؤكدا :

— ان تيريز لاتثور الا وهى بين القضبان فاذا ماردت اليها حريتها قد لا تكون هناك من هى أعقل منها ولا ارزن . هذه على كل حال محاولة يجب علينا تجربتها ..

وهذا كان رأى مسيو لاروك ايضا . ففى اعتقاده ان من الخير عموما ان تختفى تيريز اذ سيساعد رحيلها على سرعة نسيانها وسيفقد الناس عادة الحديث عنها مع الزمن . من المهم للجميع أن يخيم الصمت على هذا الموضوع كله — لقد تمكنت هذه الفكرة من عقول القوم حتى أصبح من العسير اقتلاعها :

يجب أن تخرج تيريز من عقالها وان يطلق سراحها . ما اشد تحرقهم لتحقيق هذه الفكرة واخراجها الى حيز التنفيذ ! ...

كانت تيريز تعشق هذا التجريد الذى يفرضه الشتاء المنسحب على الأرض التى اكتمل عريها ، على الرغم من الكسوة الجافة من الأوراق الميتة المتشبثة باشجار البلوط . اكتشفت فى ذلك الوقت أن الصمت فى ارجلوز لا وجود له . ففى أكثر الأوقات هدوءا تسمع الغابة تئن وتشكو كمن يبكى سوء حاله وتراها تتأرجح وتتمايل وتهجع وقد تحول الليل فيها الى وسوسة لا نهاية لها . ستصادف فى حياتها المقبلة ، تلك الحياة التى لا تستطيع أن تتصورها على

Looloo
www.dvd4arab.com

حقيقتها بعد ، أياما ترى فيها الفجر خاليا خاويا حتى لينتابها الاسف على ساعة الصباح فى ارجلوز حيث لا ضجيج غير صياح الديكة التى لا عدد لها . ستذكر فى فصول الصيف القادمة طنين زنابير النهار واصوات حشرات الليل . ستعاشر فى باريس لا هذه الصنوبرات الممزقة وانما كائنات رهيبة مخيفة . ستعيش بين جماهير الناس بعد أن عاشت طويلا بين جماهير الأشجار .

***

شعر الزوجان بالدهشة العميقة لما بينهما من حرج يكاد ان لا يذكر . قالت تيريز لنفسها أن الأشخاص يصبحون خفافا لطافا على قلبنا متى تأكد لنا ان فراقهم قريب . كان برنار يعنى بالسؤال عن وزن تيريز ، وكان يعنى أيضا بحديثها ، وكانت هى تنطلق فى الحديث امامه فى حرية لم تعهدها فى نفسها من قبل :

ـ فى باريس ... حينما اذهب الى باريس ...

انها ستقيم فى أحد الفنادق وربما بحثت فيما بعد عن مسكن . انها ستواظب على حضور الدروس والمحاضرات وحفلات الموسيقى « ستعيد تعلمها من الأساس ... » ولم يكن برنار يفكر فى فرض أية رقابة عليها . كان يكتفى بالاستماع اليها غير عابىء بما تقول مستمرا فى تناول طعامه وافراغ كأسه . كان الدكتور بيديمى الذى يتقابل معهما احيانا على طريق ارجلوز يقول لزوجته :

ـ ما يحيرنى من امرهما انهما لا يبدوان كمن يمثل تمثيلية متقنة .

ـ ١٣ ـ

فى صبيحة يوم حار من أيام شهر مارس والساعة العاشرة ، ضيل من الادميين منساب فى الطريق يرتطم بشرفة قهوة السلام ، بحيث يجلس برنار وتيريز ، القت بما بقى من سيجارتها ، وكما هى عادة اهل اللاند داست عليها بقدمها تطفئها .

ـ هل تخشين أن تنشرى النار فى الصيف ؟

قال برنار ذلك متكلفا ليوجد سببا للضحك . انه يلوم نفسه على انه صاحب تيريز حتى باريس . لا شك انه قام بهذه المهمة فى اليوم التالى لزواج آن مباشرة بسبب كلام الراى العام ، ولكن

السبب المهم هو الاستجابة الى طلب زوجته الشابة . لقد طالما قال عنها ان لها قدرة عجيبة على خلق المواقف الشاقة ، ورأى انها ظالما ظلت قائمة فى حياته فسيضطر كما يفعل الآن الى قبول القيام بمثل هذا العمل الذى لا روية فيه . ما زالت هذه المرأة المجنونة تحتفظ بجمود ظاهرى على مثل عقله المتوازن المتين . وفى لحظة الانفصال عنها لم يستطع أن يمنع نفسه من الشعور بشىء من الحزن لم يكن ليرضاه لنفسه أبدا . هذا الشعور ، انه غريب عنه اذا ما حاول أن يحدثه فيه أى انسان ، وهو جانب تيريز أكثر غرابة بل أمر لا يمكن تصوره . ما أشد حاجته وما أقوى لهفته للتخلص من هذا الشعور . لن تعود اليه انفاسه طليقة الا فى قطار الظهر ، وستنتظره السيارة هذا المساء فى لانجون . غادر المحطة مسرعا ، وانطلق على طريق فيلاندرو ، وبدأت جيوش الصنوبر المتراصة ، كان يتابع النظرات الى وجه تيريز ويوجه عينيه أحيانا الى شخص ما وسط الجماهير الغفيرة ، ويظل ينظر اليه الى أن يختفى وفجأة قال لتيريز :

ـ يا تيريز ... لقد كنت أريد أن سألك ...

ثم أشاح بوجهه ، فما استطاع ابدا تحمل نظرات هذه المرأة . واخيرا قال على عجل :

ـ اريد أن اسألك ...

ـ أريد ان اعرف ... هل كنت تكرهيننى ؟.. لانى كنت فظيعا فى نظرك ..؟

سمع هو نفسه هذه الكلمات التى تلفظ بها فى شىء من الدهشة ومن الغيظ . ابتسمت تيريز ونظرت اليه نظرة عميقة قاسية : ها هو برنار يوجه لها سؤالا ، ذلك السؤال نفسه كان يتبادر فى ذهنها لأول وهلة لو انها كانت فى مكانه . هذا الاعتراف الذى أجهدت عقلها فى اعداده بتؤدة فى العربة اولا وهى تدرج بها على طريق نيزان ثم فى قطار سانت كلير الصغير ، تلك الليلة الطويلة التى قضتها فى البحث والاستقصاء ، عن الوصول الى سبب فعلتها ، هذا الانطواء المضنى على نفسه كل ذلك سينال جزاءه فى هذه اللحظة الحاسمة . لقد ادخلت الاضطراب من غير أن تدرى الى قلب برنار . لقد اورثته

Looloo
www.dvd4arab.com

التعقيد ، وها هو فى تلك الساعة يلقى عليها سؤاله كما لو كان انسانا لا يرى الامور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم تكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن بمثل هذا التسامح الكريم .. ألقت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما يشبه عطف الأم وحنانها ، ثم ردت عليه فى نبرة كلهاسخرية :

ـ ألست تعلم انى فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من اشجار الصنوبر . نعم لقد اردت أن أصبح وحدى المالكة لأشجارك .

هز برنار كتفيه وقال :

ـ لست اعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت ذلك ؟ الا تستطيعين أن تذكرى لى السبب الآن ؟

نظرت الى الفضاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر الطامى من الطين والاجساد المتزاحمة ، فى اللحظة التى توشك ان تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تغوص راضية فى خضمه ، فى تلك اللحظة برقت امام عينى تيريز بارقة من الضوء ، لمع فجر جديد : تصورت فى مخيلتها العودة الى البيت المليء بالأسرار والأحزان تقضى فيه حياة كاملة فى التأمل والانصلاح وسط الصمت الرهيب الذى يغطى أرجلوز : المغامرة الروحية الدفينة ، البحث عن سبيل الله ... مر أمامها فى تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون السبح والعقود الزجاجية فظن انها تبتسم له واقترب منهما .. قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

ـ كنت على وشك ان اجيبك بانى لا ادرى لماذا فعلت ذلك . أما الآن فلعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب هو رغبتى فى أن أرى فى عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من الاضطراب ، كل هذه الأشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة فقط .

زمجر برنار فى صوت أعاد الى ذاكرتها رحلة العرس فى أول عهدهما بالزواج وقال :

ـ ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية ... كونى جادة ... لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

ـ أن رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الأسباب التى تصدر عنها أفعاله ، أليس كذلك ؟

ـ بالتأكيد ، بغير شك ... على الأقل يبدو لى انى أعرفها ...

ـ اما انا فكم كنت اود الا يبقى شيء خافيا عنك . لو انك علمت مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من أجل أن أرى الامور واضحة ... ولكن الأسباب جميعها التى كان فى استطاعتى أن أقدمها لك ـ هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد أن احاول الافصاح عنها ...

فقد برنار صبره وقال :

ـ على أى حال ، هناك مع ذلك يوم حزمت فيه أمرك ... ونفذت فيه فعلتك ؟

ـ نعم ، يوم الحريق الكبير فى مانو .

تقارب رأساهما ودار الحديث بينهما همسا . فى هذا المفترق بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفى هذا النسيم الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطباق الوارد من وراء البحار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه لأمر عجيب أن تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد القيظ وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتى كانت ترسلها أشجار الصنوبر المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله ببطء الجريمة النكراء .

ـ أما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. كنا فى حجرة الطعام وهى معتمة كالمعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا برأسك ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى كوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان همها كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شيء منها مهما دق . ولكنها سمعته يضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه ؛ نعم .. انه يضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

ـ لا . ما ظنك بى ؟ من تعتقدين ان اكون ؟

Looloo
www.dvd4arab.com

التعقيد ، وها هو فى تلك الساعة يلقى عليها سؤاله كما لو كان انسانا لا يرى الأمور على وضوحها ، انسانا يتردد ..! أما تيريز فلم تكن بمثل هذه البساطة ، ولم تكن بمثل هذا التسامح الكريم .. القت على هذا الرجل الجديد عليها نظرة مجاملة ، نظرة فيها ما يشبه عطف الأم وحنانها ، ثم ردت عليه فى نبرة كلهاسخرية :

— ألست تعلم انى فعلت ما فعلت من اجل ما تملكه من أشجار الصنوبر . نعم لقد اردت أن أصبح وحدى المالكة لأشجارك .

هز برنار كتفيه وقال :

— لست أعتقد ذلك الآن وما اعتقدته قط من قبل . لماذا فعلت ذلك ؟ الا تستطيعين أن تذكرى لى السبب الآن ؟

نظرت الى الفضاء : على هذا الرصيف وعلى حافة هذا النهر الطامى من الطين والأجساد المتزاحمة ، فى اللحظة التى توشك أن تندفع فيها الى هذا النهر وان تتردى فيه وان تغوص راضية فى خضمه ، فى تلك اللحظة برقت أمام عينى تيريز بارقة من الضوء ، لمع فجر جديد : تصورت فى مخيلتها العودة الى البيت المليء بالأسرار والأحزان تقضى فيه حياة كاملة فى التأمل والانصلاح وسط الصمت الرهيب الذى يغطى أرجلوز : المقامرة الروحية الدفينة ، البحث عن سبيل الله ... مر أمامها فى تلك اللحظة رجل مراكشى ممن يبيعون السبح والعقود الزجاجية فظن أنها تبتسم له واقترب منهما .. قالت تيريز وهى ما زالت تتظاهر بالسخرية :

— كنت على وشك ان اجيبك بانى لا ادرى لماذا فعلت ذلك . أما الآن فلعلى عرفت السبب . تصور ..! ربما كان هذا السبب هو رغبتى فى أن أرى فى عينيك شيئا من القلق ، من التطلع ، من الاضطراب ، كل هذه الأشياء التى اكتشفتها فيك منذ هذه اللحظة فقط .

زمجر برنار فى صوت أعاد الى ذاكرتها رحلة العرس فى أول عهدهما بالزواج وقال :

— ستظل السخرية تلازمك حتى النهاية ... كونى جادة ... لماذا فعلت ذلك ؟

كفت تيريز عن السخرية والضحك وقالت :

— ان رجلا مثلك يا برنار يعرف دائما جميع الأسباب التى تصدر عنها أفعاله ، أليس كذلك ؟

— بالتأكيد ؛ بغير شك ... على الأقل يبدو لى انى اعرفها ...

— أما انا فكم كنت اود الا يبقى شيء خافيا عنك . لو انك علمت مقدار العذاب الذى فرضته على نفسى من أجل أن أرى الأمور واضحة ... ولكن الأسباب جميعها التى كان فى استطاعتى أن أقدمها لك — هل تفهم ؟ كانت ستبدو لى كاذبة بمجرد أن أحاول الافصاح عنها ...

فقد برنار صبره وقال :

— على أى حال ، هناك مع ذلك يوم حزمت فيه أمرك ... ونفذت فيه فعلتك ؟

— نعم ، يوم الحريق الكبير فى مانو .

تقارب رأساهما ودار الحديث بينهما همسا . فى هذا المفترق بين شوارع باريس ، تحت هذه الشمس الخفيفة ، وفى هذا النسيم الذى تخالطه البرودة وتفوح فيه رائحة الطباق الوارد من وراء البحار والذى يداعب الستر الصفراء والحمراء ، وجدت تيريز ، انه لأمر عجيب أن تستعيد ذكرى ذلك اليوم الحار الشديد القيظ وتلك السماء المختنقة بالدخان وذلك الافق الملتهب وتلك الرائحة النفاذة المنبعثة كرائحة المشاعل والتى كانت ترسلها أشجار الصنوبر المحترقة ، والى جانب ذلك كله قلبها الهاجع الذى تتشكل فى داخله ببطء الجريمة النكراء .

— أما كيف حدث ذلك فاليك الشرح .. كنا فى حجرة الطعام وهى معتمة كالمعتاد فى ساعة الظهر ، وكنت انت تتكلم ملتفتا برأسك ناحية باليون وقد سهوت عن عدد القطرات التى كانت تتساقط فى كوبك .

لم تكن تيريز تنظر الى برنار وهى تروى له ما تروى ، وانما كان همها كله منصرفا الى تذكر جميع الظروف وعدم اهمال شيء منها مهما دق . ولكنها سمعته يضحك فتوجهت بنظرة الى وجهه : نعم .. انه يضحك ضحكته البلهاء وهو يقول :

— لا . ما ظنك بى ؟ من تعتقدين أن أكون ...

Looloo
www.dvd4arab.com

انه لا يصدقها . وهل يمكن فى الواقع ان يصدق كلامها هذا احد ؟ عاد يزمجر ، فعرفت فيه برنار المتأكد من نفسه والذى لا يسمح لاحد بأن يدخل الغفلة عليه .. لقد استعاد طبعه وثقته بنفسه ، فشعرت تيريز ثانية بالضياع . قال لها باستهزاء :

ـ اذن .. لقد جاءتك الفكرة هكذا ، دفعة واحدة ، بايحاء من الروح القدس ؟

شعر برنار باحتقار شديد لنفسه ، اذ واجه تيريز بهذه الاسئلة . انه بذلك قد اضاع كل الفائدة من السخرية التى صبها على رأس هذه المجنونة . وها هى الآن تعود فترفع رأسها . ما الذى دفع به الى الاستجابة لتلك الرغبة الجامحة فى فهم ما حدث ؟ وهل هناك شىء يمكن فهمه من هؤلاء المخبولين ؟ انها غلطة افلتت منه . انه لم يعمل الفكر جيدا ...

ـ اسمع يا برنار ان ما اذكره لك عن هذا الامر لا اقصد به الى اقناعك ببراءتى . كلا ... ليس هذا بالمرة .

وفى شهوة عجيبة انطلقت تيريز تكبل نفسها بالاتهام . وكانت هى تحكى عن طريقة ارتكابها فعلتها على هذا الوجه اللاارادى ، تبدو كمن قضت الشهور الطويلة تركز فى فؤادها وتغذى فى قلبها الافكار الاجرامية الفظيعة . الم تعمد بعد ان قامت بالخطوة الاولى من الجريمة الى اعمال الذهن الصافى فى الاصرار على الاستمرار وتنفيذ ما انتوته حتى النهاية .

ـ لم اكن اشعر بالقسوة الا فى اللحظات التى كانت تدى فيها تتردد . كنت اتقم على نفسى بسبب اطالة الامك . كان يجب ان اذهب حتى النهاية وباقصى سرعه . لقد كنت استجيب الى واجب مفروض على فظيع . نعم ، ان ما عملته كان شبيها بالواجب المفروض ...

قاطعها برنار قائلا :

ـ ماهذا اللغو والتخريف ؟ حاولى ان تقولى لى باختصار ماذا كنت تريدين ! انى اتحداك ان تقولى ..

ـ ماذا كنت اريد ؟ لاشك انه من الايسر لى ان احدثك عما لم اكن اريده .. لم اكن اريد ان امثل شخصيته غير شخصيتى ،

ولا ان آتى بالحركات المفتعلة ، ولا ان اتلفظ بالصيغ المحفوظة ، ولا ان انكر فى كل لحظة تيريز هذه التى . لا يا برنار ، تاكد انى لا ابغى الا ان اكون صادقة مصدقة . وانى لاعجب كيف ينبعث من كل ما اقصه عليك الآن هذا الصدى ، صدى الكذب والتلفيق ... !

خفضى صوتك . هذا الرجل الذى امامنا يلتفت نحونا .

لم يعد برنار يتمنى الا ان ينتهى هذا المشهد ويتخلص من هذا الموقف . انه يعرف جيدا هذه المرأة المريضة المجنونة . لو انه تركها تسترسل فى هرائها هذا لراحت الى مالا نهاية تحلل وتدقق وتصنع من الحبة قبة . كذلك كانت تيريز ، ان هذا الرجل الذى اقترب منها لحظة قد عاد وابتعد عنها بعدا سحيقا . ولكنها مع ذلك اصرت على الكلام ، وحاولت ان تظهر احلى ماعندها من بسمات ، وان تستخدم فى صوتها تلك النبرات الخفيفة الفليظة التى طالما احب سماعها برنار .. قالت :

ـ اما الآن ، يابرنار ، فانى احس تماما ان تيريز هذه التى تدفعها الغريزة الى اطفاء سيجارتها خوفا من اشعال الحريق فى الاحراش .. تيريز التى كانت تهوى القيام بنفسها بعد اشجار الصنوبر المملوكة لها وبحساب ثمن عصاراتها ، تيريز التى كانت فى يوم من الايام فخورة بزواجها من احد آل ديكوبرو حريصة على الاحتفاظ بمركزها فى قلب عائلة من اكرم عائلات اللاند سعيدة بحصولها فى آخر الامر على الاستقرار والاسرة ... تيريز هذه مازالت حقيقية كالاخرى وما زالت كالاخرى حية ترزق . لا ، لا ، ليس هناك من سبب للتضحية بها من أجل تلك الاخرى ...

ـ اية اخرى ؟ ...

لم تدر تيريز بماذا تجيب . نظر برنار فى ساعته بينما تيريز تقول :

ـ يجب على مع ذلك ان احضر من وقت لآخر الى البلدة ... من اجل مصالحى ... ومن اجل مارى ...

ـ اية مصالح ؟ .. انا الذى ادير جميع الاموال المشتركة بيننا . لن نفسد ماتم الاتفاق عليه ، اليس كذلك ؟ سيكون لك مكانك فى جميع المناسبات الرسمية ، من اجل شرف الاسرة ومن

Looloo
www.dvd4arab.com

اجل مصلحة مارى ، ان تكونى الى جانبى لكى يرانا الناس معا .
ان عائلة كبيرة كعائلتنا لاتخلو ، ولله الحمد ، من حفلات الزواج ولا من الجنازات ايضا . بل انى اتوقع شيئا من هذا قريبا ، اذ يدهشنى أن يظل العم مارتان على قيد الحياة حتى الخريف القادم . ستكون هذه فرصة لك على مايبدو ..

* * *

جندى المرور على ظهر جواده يقترب بصفارته فى شفتيه فتتفتح ابواب خفية وينساب سيل من المشاة متعجلين يخترقون نهر الشارع الاسود قبل ان تطفى عليه موجات السيارات المتلاحقة.
قالت تيريز فى نفسها :

— كان يجدر بى ان ارحل فى احدى الليالى الى ناحية برارى الجنوب ، كما فعل داجير من قبل . كان يجب على أن انطلق وسط اشجار الصنوبر الهزيلة فى تلك الاراضى الخبيثة ، واسير حتى يدركنى الاعياء والفناء . فما كنت لاجد فى قلبى الشجاعة على الاحتفاظ براسى غاطسا تحت مياه احد المستنقعات كما فعل ذاك الراعى فى ارجلوز فى العام الماضى لان زوجة ابنه لم تكن تعطيه مايمسك رمقه من الطعام . لا ، ولكنى كنت استطيع ان القى بجسمى وسط الرمال وأن اغلق عينى ... حقيقة هناك الغربان وهناك جيوش النمل التى لاتتمهل والتى لاترحم ..

نظرت الى ذلك البحر الخضم من الآدميين يتدافع امامها ، تلك الكتلة البشرية الحية التى سوف تنفرج بعد حين لتتلاقف جسدها وتدحرجه بين طياتها ثم تمضى به الى المجهول . لم يعد هناك شىء بينهما يمكن ان يفعل او يقال .. اخرج برنار ساعته مرة اخرى وقال :

— الحادية عشرة الا ربعا : مجرد الوقت الكافى للمرور على الفندق ...

— لن تشعر بالحر الشديد فى اثناء سفرك .

— بل ربما احتجت لان اتدثر هذا المساء فى السيارة .

رات تيريز فى مخيلتها الطريق الذى ستدرج فيه سيارته وشعرت بالنسيم البارد الذى سيغطى وجهه ، نسيم محمل

بالروائح المنبعثة من المستنقعات ومن عصارات جذوع الاشجار ومن الحشائش المحترقة ومن نبات النعناع المنتشر ومن الضباب المعلق بالاغصان . نظرت الى برنار وابتسمت له تلك الابتسامة التى طالما قالت عنها سيدات اللاند فى الماضى :

— لا يستطيع احد ان يقول انها جميلة ولكنها السحر نفسه .

لو أن برنار قال لها فى تلك اللحظة :

— انى اغفر لك .. تعالى ...

فنهضت لتوها وتبعته راضية . ولكن برنار وقد احس للحظة بالضيق مما انتابه من تاثر وضعف ، لم يعد يشعر الآن الا ببشاعة المواقف التى لم يتعود مثلها وبسخف الكلمات التى تختلف عن تلك التى درج على تبادلها كل يوم . لقد كان برنار اسير عاداته كما كانت عرباته « على قدر الطريق » الذى تدرج فيه . لقد كان مثل هذه العربات فى حاجة الى الحفر والاخاديد التى كونها الزمن . وحينما يعود الى تلك الحفر والاخاديد ، فى هذا المساء نفسه ، فى حجرة الطعام فى سانت كلير ، سيستعيد هدوءه ويتذوق من جديد الراحة والسلام .

— اريد للمرة الاخيرة ان اطلب منك الصفح والغفران يا برنار .

ارسلت هذه الكلمات فى نبرة جادة وان خلت من الامل . انه جهد اخير تبذله على امل ان تستعيد به الحديث . ولكنه رد عليها محتجا :

— لنكف عن الكلام فى هذا الموضوع ...

— ستحس بنفسك وحيدا . ستشعر بمكانى الى جوارك على الرغم من بعدى عنك . ربما كان من الخير لك لو ان الموت اخذنى .

هز كتفيه قليلا وفى صوت به المرح المتكلف قال :

— ارجوك ، لاتشغلى بالك بأمرى ..

وبعد برهة قصيرة قال :

— لقد كان فى كل جيل من اجيال آل ديكويرو رجل قضى حياته اعزبا . وكان مقضيا على أن اكون انا رجل هذا الجيل . لقد توفرت لى جميع الصفات اللازمة لذلك ، وهذا امر لا تنكرينه انت

Looloo
www.dvd4arab.com

بالذات . ان ما يؤسفني فقط هو اننا انجبنا طفلة مما يهدد الاسم بالزوال . حقيقة لو اننا ظللنا معا لما رغبنا في الحصول على اطفال آخرين ... اذن ... سواء اهذا ام ذاك ... فالامر كله على مايرام ... لا تتحركي ... ابقي في مكانك .

اشار الى احدى سيارات الاجرة وعاد الى تيريز يخبرها ان ماتناولاه من مشروب قد دفع ثمنه .

* * *

نظرت تيريز طويلا الى قطره شراب البورتو الباقية في قاع الكاس التي شربها برنار ، ثم عادت تسرح بنظرها بين المارين . ان منهم من يبدو وكانه ينتظر ، ثم يروح ويجيء على غير هدى . هذه امراة تتلفت مرتين وتبتسم لتيريز ، لعلها احدى العاملات ، او لعلها متخفية في ثياب العاملات ، هذه هي الساعات التي تلفظ فيها جميع مشاغل الخياطات كل من فيها الى عرض الطريق . لم تفكر تيريز في ترك مكانها هذا ، وقررت الا تذهب في هذا اليوم الى رؤية جان ازيفيدو . تنفست الصعداء : لقد نجت ، لم تعد تريد رؤيته . ما اسام طول الحديث والبحث المستمر عن الصيغ والعبارات ! انها تعرف الكثير عن جان ازيفيدو ، ولكن الاشخاص الذين تتمنى القرب منهم لاتعرف عنهم شيئا ... لا تعرف عنهم الا انهم ان يكلفوها عناء الاحاديث الطويلة — لم تعد تيريز تخشى الوحدة والانفراد . يكفيها ان تظل هكذا بلا حركة . انها تحس ان جسدها الذي ربما اجتذب اليه هناك وهو ممد في براري الجنوب جحافل النمل وقطعان الكلاب الضارية يجمع حوله في هذه اللحظة اخلاطا مبهمة من الناس وحركة لاتهدأ من البشر . احست بالجوع فنهضت من مقعدها . نظرت في مرايا مقهى اولد انجلند الى صورتها قرأت نفسها امراة شابة مرتدية ثياب السفر اللاصقة بجسمها مضفية عليها هنداما جميلا رائعا . تذكرت ايامها الماضية في ارجلوز وقت ان كان وجهها بادي الارهاق وقد برز فيه صدغاها الشاحبان وانفها الصغير . قالت لنفسها :

— لا تبدو على السن واضحة .

تناولت طعام الغداء في شارع رويال الذي طالما داعب احلامها في الماضي . ثم تساءلت :

— ما الداعي الى العودة الى الفندق مادمت لا اميل الى ذلك ؟ احست بسرور حار ينتشر في انحاء جسمها بعد ان شربت نصف تلك الزجاجة من النبيذ . طلبت شيئا من السجائر . تقدم اليها شاب يجلس الى المنضدة المجاورة بولاعته مشتعلة فابتسمت . تذكرت في هذه اللحظة الطريق المؤدي الى فيلاندر في المساء بين اشجار الصنوبر الكئيبة ، وعجبت كيف انها من ساعة تمنت ان تعود اليه تذرعه الى جانب برنار .. هل هي تهوى هذا البلد ام ذاك ؟ هل هي تحب اشجار الصنوبر ام اشجار الزينة المصطفة في شوارع باريس ؟ هل هي تعشق المحيط الصاخب ام السهل الهادىء الوديع ؟ لايهمها من كل ماهو حي يعيش غير الكائنات التي خلقت من لحم ودم .. قالت لنفسها :

— ليست المدينة باحجارها ومبانيها هي الشيء الذي احبه واهواه ، لا ولا المحاضرات والمتاحف وما تحويه المدينة من متع وجمال ، وانما هو تلك الغابة الحية التي تضطرب بين جدرانها والتي تمزقها الشهوات في قوة ووحشية لم تر لهما مثيل في اعتى الزوابع واشد الاعاصير .. ان الانات التي كنت اسمعها في الليل قادمة من اشجار الصنوبر في ارجلوز لم تكن لتمس مشاعري الا لان شيئا آدميا كان يصل منها الى قلبي .

كانت تيريز قد شربت قليلا ودخنت كثيرا . كانت تضحك لنفسها كما لو كانت سعيدة — اعادت طلاء خديها وشفتيها في عناية فائقة ، وبعد ان انحدرت الى الطريق ، سارت فيه على غير هدى .

تمت

Looloo
www.dvd4arab.com